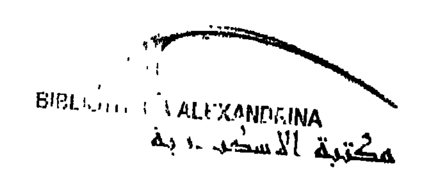
مجدى كامل







عظماء من تحت الصفر



DAR AL AMEEN

طبــع • نشــر • توزيع

القاهرة : ١ ش محمد محمود
باب اللوق (برج الأطباء)
تليفــون : ٣٥٥٨٤٦١

الجيزة : ١ ش سوهاج ـ من
ش الزقازيق ـ خلف قاعة
سيد درويش ـ الهرم

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ١٩٩٤/٢٤٤٤
I.S.B.N.
977—5424—45—3

إهـــداء

إلى زوجتى مـــاجـدة وابنى أحمـــد وابنتى
سلمى ...

أهدى هذا الكتاب

مجدى

تقـــديم

تكثـر هـذه الأيـام بعض الدعـاوى المغـرضـة ، والآراء الهدامـة ، التى تـريـد أن تجرد عظماء التـاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانيـة الخالد من محتـــواه .

وقد وجدنا أن عملية الإبادة التاريخية هذه لا تجرى فقط فى العـالم الخارجى ، وإنما أيضـا فى عالمنـا العـربى الكبير .. ونحن نـرى فى هـــذا المسلك شرا عظيما يمكن أن يعمل على تحطيم مكـانة عمالقـة عاشـوا بيننا ذات يـوم ، وأثروا حيـاتنا بخلاصـة فكرهم ، وعصارة إبـداعهم ، وأضاءوا لنـا الطريق نحو مستقبل أفضل .

ومن هنـا جـاء التفكير فى إعـداد هـذا الكتـاب الـذى نحاول فيـه أن نبين كيف كان طريـق البطولة شـاقا ، وكيف كان بلـوغ العظمة له ثمن غـالٍ فاحش الغـلاء ، وكيف كان عظماء التاريخ يـدفعون هذا الثمن عن طيب خـاطر ، ودون تردد ، حتى يمسحـوا عن جبين الإنسانية دمعة ، أو يـرسموا على شفاهها بســـمة .

وقـد روع المؤلف ما يـردده بعض المفكرين لـلأسف أن البطل وليد عصره ، لابد أن يتمخض عنه جيله ، أى أنه بطل رغم أنفـه ، لأن عصره هو الـذى جعل منه بطـلا ، وما كـان يستطيع أن يكون غير بطل !

أى هـراء هـذا ، وأى جحـود ، أبهذه البسـاطـة نجحـد العظمة ، ونهون من قدر العظماء ، ونجعلهم مجرد آلة أوجدها العصر !

كما روع المؤلف مـا قـرأه على صـــدر بعض صحفنـا ومجـلاتـنا من أن قـرب « فـلان » من موقع السـلطة ، أو « الأحـداث » بحكم مـوقعه جعـل منـه مفكرا أو كـاتبـا مشهورا .. وهنـا نجرد الكـاتب أو المفكر من جميـع أسلحته وقـدراته ومـواهبه ، ونحيل إبـداعـاته ، ونتـاجه الفكـرى أو الثقافى إلى قربه من مؤسسة السلطة أو صنع القرار .

ومن أسـوأ مـا شهـدته التسعينيـات هـو تلك الحملـة الشرسة والضاريـة التى قادتها أقلام بعض مرتـزقة الفكر من كتاب السير الذاتيـة الجدد لتشويه قادة الفكـر والتنوير ، أو رجـال العـلم والتطوير ، وإظهار جـوانب مظلمة لم تكن أبـدا فى حياتهم ، وإنما التفسـير الـذاتى المغرض للتـاريخ وراء ذلك .

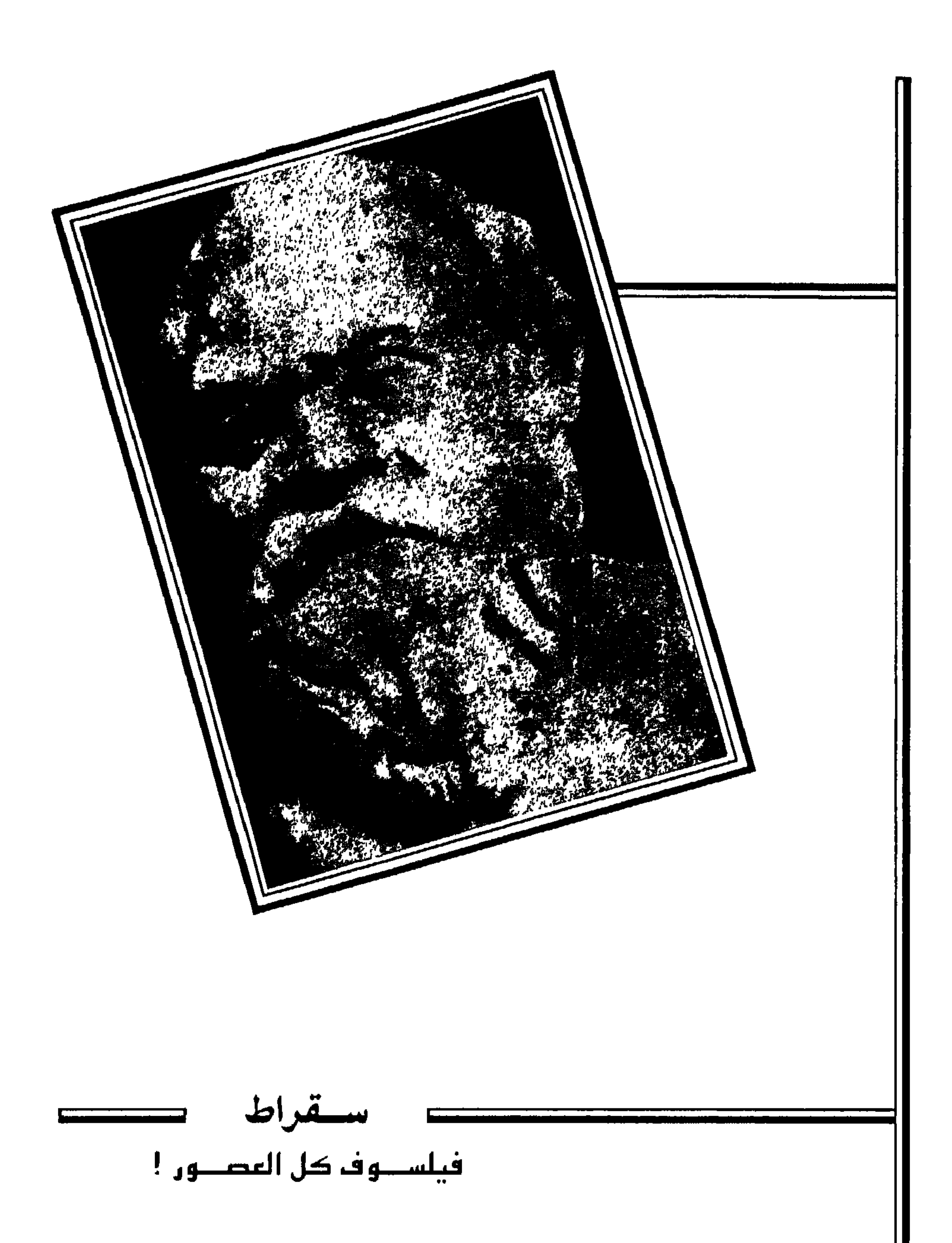
ومن هؤلاء الكتاب من يقبـض الثمن ، أى أنه للأسف مجرد أداة تحاول تحطيم مـا شيـده العظماء لأنفسهم من مجد لحسـاب جهـات تقدم لهم الثمن والاسم المطلـوب اغتيـال مكانتة .

وقد رأينا أنه من واجبنا أن نقـدم من جديد حياة بعض عظماء التاريخ الـذين لاقوا الهوان ، وذاقوا الأمرين ، قـاسوا الويلات ، وتكبدوا المشاق ، حتى قـدموا للإنسانية المعـذبة ما يستحق الذكر .

وفى هذا الكتـاب سنجد أن هنـاك خيطا واضحـا يربط بين جميع شخصياته العظيمة ، وهو مولدهم فى بيئات فقيرة ، ونشأتهم فى ظـروف حياتية عصيبـة ، وتعرضهم لشتـى صور البـؤس والشقاء ، وتجرعهم كـل كئوس الـذل والهوان ، وهم لتوهم يبدأون أولى خطـواتهم فى مشوار الحياة .. ومع ذلك لم يهنوا ، ولم يضعفوا ، وإنما استجمعوا ما تبقى من قواهم التى خرجـوا بها من معركتهم مـع ظروف وأوضـــاع لا ذنب لهم فيها ، ووقفوا صامدين ، يصنعـون ويعيدون كتابة التاريخ فى ملاحم بطولية رائعة .

هذا الكتاب يتحدث عن عظماء التاريخ الذين انهالت عليهم الأحجار فخرجوا من تحتها شامخين .

مجدى حسين كامل



سقراط

فيلسوف كل العصور !

هذا الرجل هو أعظم الرجال فى العالم القديم . إنه أكثرهم حكمة ، وجرأة ، وشجاعة ، وإقدام ، لقد فضل الموت على أن يتوقف لسانه عن قولة الحق ، أو تتراجع أقدامه عن الطريق ، الذى أدرك أنه يحمل الخلاص للإنسانية البائسة . بدأ حياته كفنان ، ثم تحول إلى الفلسفة ، وسرعان ما اكتسب سمعة عظيمة كمفكر أصيل .

قبيل الحكم على « سقراط » بالإعدام تنبأ علانية وعلى مسمع من القضاة بأنه لن يكون الضحية الأخيرة للسلطة العمياء ، وقال : « إن التاريخ سيشهد من بعده أن لا خاتمة ، أو نهاية لقافلة العظماء الذين يقدمون للموت - من وقت لآخر - تارة باسم الشعب ، وتارة باسم الدين ، وتارة أخرى بدافع المصلحة العامة » .

وقال سقراط : « إنه فى الجو المشبع بالخوف على زوال مكسب ، أو تصدع سلطان ، أو نهاية حكم ، يفقد أولو الأمر رشدهم ، وتُظَلِم قلوبهم ، ويتخبطون فى قراراتهم ، فيصدرون أحكاما على أعظمهم شأنا ، أو أكثرهم علما ، أو أكبرهم حكمة كأنه أحقر وأحط المجرمين » .

ولم يقف سقراط الفيلسوف الحكيم عند هذا الحد ، فقد تنبأ أيضا باليوم الذى سيعود فيه اسمه إلى قائمة الخالدين فقال : « وبعد الحكم الجائر (ضد الحكماء والعظماء) لا يلبث أن يزول الظرف الذى أملى على أولى الأمر حكمهم الجائر ، وتهمد الغلواء ، وترقد العاصفة ، وينقشع الضباب ، وتسطع الحقيقة ، فيأتى بعدهم من يرفع لهم التماثيل فى الساحات ، ويزين

المدائن بأسمائهم ، فيخلـدون كأكبر المصلحين ، فيما يطـوى النسيان ذ
من أقدموا على إدانتهم أو يذكرون فى عداد الظالمية » .

ومـا أن انتهى سقـراط العظيم من كلمتـه أو بمعنى أدق نبـوءتـه
حُكِمَ عليه بـالموت بشرب السم ، فرضخ للقـرار الظالم ، واستسلم لنهـ
ومـات سقراط فى عـام ٤٠٠ قبل الميلاد ؛ ولكنـه خلـد بفكره ، وأصبح
ذلك الوقت ، وحتى يومنا هذا من عظماء التاريخ الخالدين الذين لا تز
الأيام إلا توهجا وبريقا .

وتكمن عظمـة سقـراط فى أمـور عـدة تجمع بينهـا خيـوط متـداخ
ومتشابكة تصنع فى النهاية مجدا لا حد له .

وُلِدَ سقراط فى أسرة فقيرة لا تملك حتـى ثمن تعليمه المبادىء الأو
القراءة والحساب ، كـان أبوه نحاتا مغمورا اسمه « سفـرونيسك » وأمه
فاضلة تسمى « فانا ريتا » . ورغم مولد سقراط بمدينة « ألوباس » الص
إلا أنه انتقل مع أبيه إلى أثينا لينشأ هناك ، ويظل يعمل حتى إعدامه .

فى البداية ، تعلم سقراط مهنة أبيه ، وأتقنها لدرجة مذهلة ، ورغم
تكن تدر عـائدا طيبا فى تلك الحقبة إلا أن سقـراط كان راضيا قـانعا لا
ولا يكل .

وذات يوم ، حدث ما لم يكن فى الحسبـان ، فقد دار حوار مثير بينه
نفسـه انتهى بتحول خطير فى حيـاتـه . حدث سقـراط نفسـه : « إنك
نفسك حتى تنقل صـورة جـامـدة إلى الحجر لا روح فيهـا ، ولا تفكـر
تصقل نفسك فتجعل منها تمثالا حيا يجسد الحقيقة الأعلى » .

وعلى الفور تخلى سقراط عن المطرقة والأزميل وانصرف كلية للبحث عن الحقيقة ، وعندما طالبه والده بالعودة إلى النحت قال : « الآثار الفنية مهما بلغت من الجمال تبقى صماء ، أما البشر فينطقون ، وبى حاجة لسماعهم » .

وخلال فترة وجيزة أخذت عبقرية سقراط وخاصة حكمته البليغة تظهر وتشتهر حتى إن أحد أصدقائه ذهب إلى معبد « أبولون » وسأل كاهنة المعبد : « هل فى أثينا من يفوق سقراط حكمة » ، فأجابت : كلا .. وانقل هذا على لسانى إلى سقراط » .

هكذا بدأ سقراط ، وهو لا يتجاوز الثلاثين من عمره طريقه فى الحياة كما رسمه لنفسه ؛ ولكن سقراط الفقير لم يكن لديه ما يدفع منه أجور كبار رجال العلم والفلسفة الذين يفدون لأثينا لتقديم دروسهم لكل من يحب ويهوى .

ومع ذلك ، فقد كان لسقراط عقل راجح ، ورؤية ثاقبة ، وعبقرية مزيدة ، فلم يكن يُسلم بشىء ، أو يأخذه على علته ؛ بل كان يعمل فكره فى كل شىء فاحصا مستقرئا ، متقصيا ، وقال : « إذا قال أحد إن شيئا هو كذا فهل نسلم بأنه كذلك ؛ أم نفحص ما يقول هذا القائل ؟!.

ورغم بساطة هذا الموقف إلا أنه كان خطيرا ؛ بل وينذر بشر مستطير ، فقد وجد سقراط نفسه وجها لوجه أمام أقوال السلطة الحاكمة فى أثينا ، وكلام الآلهة . فمن جهة يدرك هو أن الآلهة لا تكذب ، وفى نفس الوقت السلطة الحاكمة لها السمع والطاعة ، ومن جهة أخرى ماذا لو ثبت بالعقل والمنطق والحجة والبرهان أن السلطة والآلهة فى أثينا لا تفعل الصواب ،

ولا تقـول الحق ، هذا هـو ما حير سقـراط ، ويقال إنـه من هذه الحيرة وُلِـدَ العقل فى اليونان القديمة .

رأى سقراط وتبين أن سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بالفضيلة ، وما هذه الفضيلة إلا معـرفة الخير وعملـه ، وعلى المرء أمران فى غـاية الأهميـة ؛ بل هما معيار وجوده ، ودليل كينونته، البحث عن الخير أولا ثم عمله أو اتباعه ثانيا.

كما رأى سقـراط فى بحثـه عن الحكمة أن الحكمـة الحقيقيـة هى العمل على نشر الفضيلـة بين النـاس بـالتعليم والقـدوة أو « كمال العلم لكمال العمـل » .

وأدرك سقـراط العظيم أن الفضيلـة كـائنـة فى الإنسـان ؛ إنما تحجبهـا ستارات من الأوهام ، والأفكـار الخاطئة ؛ لذا قرر أن يأخـذ على عاتقة تمزيق هذه الستائر أو الحجب لإخراج الفضيلة من الظلمات إلى النور .

واستقر سقراط عند إسلوب وجـد أنه يحقق هذا الهدف ، وتلك الغاية ، وهو توعية الآخرين ، وتنشيط فكـرهم فردا فردا بأسئلة ومحاورات تنقلهم من حقيقة إلى حقيقـة أخرى حتى يصل إلى النتيجة المحتـومة التى ترسو عنـدها الحكمة والمعـرفة ؛ لينطلق الإنسـان فى تعديل سلـوكه ، أو تقـويم اتجاهه فى الحيـاة بنبذ الشر ، وتـوخى الحق والعـدل ، ومقـاومة الظلم والقهـر أو نصرة الضعفاء ، والبؤساء ، والمظلومين .

وأخذ سقراط يجوب شوارع أثينا ، يستوقف الناس ، يحدثهم ، يحاورهم ، كان يفعـل ذلك دون مراعاة شئـونه الخاصـة ، حتى إن هيئته كـانت تنم عن الفقر والتقشف ، قاسى البرد والحر والجوع والظمأ فى سبيل الرسالة التى أخذ عى عاتقه أداءها ، والتى جعلته فيلسوف كل العصور بلا منازع .

وكـان يبدأ محاوراتـه بالأسئلـة فيستـوقف مثلا قـاضيا ، وينتهى بـه إلى الاعتراف بأنه مقصر فى خـدمة العدالـة ، مهمل لمصالح الفقـراء ، وأن عليه مراجعة ما مضى من حياته ، بعد مـا جعله سقراط يعترف بذنوبه ، ويقرر أن يبدأ حياة جديدة يكون فيها القاضى العادل .

وكان لسقـراط قدرة على المبـادرة اللطيفة ، والحديـث العذب ، سيـاقة الحجج والأدلة والراهين وتقريب الأمور إلى الناس .

واستمر سقراط على هـذا النحو أكثر من أربعين سنـة ، وكلما كان يكثر أتباعه وتلامذته ، كان يكثر أيضـا أعداؤه ، ويتضاعف عدد خصومه خاصة وأن نزوله إلى الأسواق واختلاطه بالعـامة كاد يقلب النظام الدينى والسياسى فى أثينا .

وكان من أكثر ما قلب السلطة الدينيـة والسياسية على سقراط هو عدم تسليمـه بما يُحكَّى عن الآلهة الكثيرة الموجـودة فى بـلاده ، واعتبر أن الديـانـة التقليدية التى تعتمد آلهة أثينا المتنازعة فيما بينها ليست أساسا سليما للسلوك الأخلاقى ، وقـال : « إن هناك نظاما للقيم معياره الفضيلـة ، ومحكه العقل ، وهو محفور فى ضمير الإنسان ، وليس فى المراسم والطقوس الخارجية .

واجتمع خصوم سقـراط بتأييد من حكـام المدينة ، وكـان أكبر الخصوم ثلاثـة هم : « أينتوس » أحد الزعماء السيـاسيين ورجال الصناعـة الذى أقنع سقراط ابنـه بالانضمام إليه، و « ميلتوس » وهـو شاعر شـاب مغمور طلب منـه أينتوس تقـديم دعوى ضـد سقراط واستعـان بخطيب مشهور اسمـه « ليكون » ورُفِعَتْ الدعوى إلى الملك .

تضمنت الدعوى تهمتين لسقراط أولهما : إنه لا يعترف بآلهة المدينة ويعمل على احلال آلهة جديدة مكانها ، ويفسد الشباب .. أما العقوبة المطلوبة فقد كانت الإعدام .

ورغم محاولات سقراط الدفاع عن نفسه ، ورغم محاولة أتباعه وأنصاره ، وتلامذته التصدى لخصومه وانقاذه من الموت .

ووسط جموع الأثينيين الغفيرة ، التى تدفقت إلى قصر الملك، ليشهدوا محاكمة سقراط التى كانت مدبرة من قبل ، وما هى إلا تمثيلية معدة بإتقان ، للتخلص من أعظم رجل عرفه العالم القديم الذى استطاع أن ينزل بالفلسفة إلى رجل الشارع ، ويهبط بها من السماء ، ويجعل لها مكانا بالمدن ، لتدخل المنازل بعد أن حصرها فى البحث عن الحياة والأخلاق .

□○□○□



محمد على

أعظم الحكام فى التاريخ

كان جنديا مغمورا من أسرة فقيرة دفعت به إلى الجيش كى يشق طريقه ، ويجد ما يقيه الجوع والبرد والبؤس والشقاء ، وقد كان يمكن لهذا الصبى أن يتحول إلى رقم يضاف إلى قائمة الجنود ، لولا أنه كان يرى فى نفسه الكثير الذى يمكن أن يفعله فى هذا العالم الكبير ..

هذا هو محمد على أعظم زعماء التاريخ - فى رأيى الشخصى - وأحد أفاضل من أنجبته أمة الإسلام ، كما أنه نموذج فريد للقيادة المفقودة ، والزعامة الحقيقية الضائعة فى العالم الإسلامى الذى يتخبط شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، ويهيم على وجهه بلا هوية .

لم يكن محمد على مجرد حاكم جاء على قمة السلطة فى أعظم بلاد الحضارة فى العالم ، بل كان أيضا أكثر من أحبوا البلاد التى حكموها ، حبا إيجابيا ، مخلصا ، لا يبغى من ورائه منفعة أو مصلحة ، كما يردد مزيفو التاريخ الذين لم ينهب الأوطان أحد كما فعلوا هم ، ولم يعث فى الأرض فسادا أحد كما فعلوا هم !

كما أن محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى يدرس فى جميع جامعات العالم ، وخاصة طريقته فى بناء دولة قوية هو أحد الحكام المعدودين على أصابع اليد الواحدة الذين تولوا الحكم فى دول نامية - حتى وقتنا هذا - بناءً على إرادة شعبية ، واختيار شعبى ، وتفويض شعبى .

إن عظمة محمد على أنه لم يكن مصريا ورغم ذلك أصر المصريون وسعوا إليه ، واستماتوا ، وحاربوا وقاتلوا ليولونه حكمهم ، وتحدوا الدولة العثمانية

من أجله . فلم يأت هذا الزعيم فى انتخابات مزورة ، أو استفتاءات مدبرة ، أو فى انقلاب عسكرى ، أو مخطط أجنبى .

ووراء هذا الرجل العظيم قصة كفاح قلما نجد لها مثيلا فى التاريخ .. قديما وحديثا .. قصة عاشها العالم كله ، ولا تزال تدرس فى كتب التاريخ فى شتى بقاع الأرض .

ولد محمد على فى أسرة متواضعة بمدينة « قولة » إحدى المدن الإسلامية فى البلقان فى عام « ١٧٦٩ » ، وهو تركى عثمانى مسلم لا يمت للألبانيين بصلة كما حاول بعض المغرضين أن يروج له ولم ينعم محمد على بأبيه كثيرا فقد مات الرجل وتركه صغيرا ، فكفله والى المدينة ضمن من يجمعهم من الأطفال ليقوم بتربيتهم حتى يكونوا حراسه المستعدين أن يموتوا من أجله .

وتعلم محمد على اليتيم البائس ركوب الخيل ، والمبارزة بالسيف ، وكيفية مطاردة وتعقب اللصوص وقطاع الطرق ، وأظهر محمد على رباطة جأش ، وعزيمة صلبه ، وإرادة حديدية ، وفكر ثاقب ، وقوة قلب غير عادية ولأن الجندى الشجاع لفت إليه الأنظار ، وأصبح معروفا وسط أقرانه ، ثم قادته ، ثم الوالى نفسه ، فقد زوجه هذا الوالى سيدة من قريباته ، ورزقه الله منها بخمس من الأبناء والبنات .

وبعد زواج محمد على ومولد أول أطفاله اتجه لتجارة الدخان فترة من الوقت ، خاصة وأن مدينة « قولة » كانت تنتج أجود أنواع الدخان فى تركيا والعالم .

وعندما جمعت الدولة العثمانية جنود القوة التى قررت تركيا نشرها هناك فى أوربا كان محمد على أحد الذين تم ضمهم إليها ، حيث أظهر بعد ذلك

فروسية وجندية ، وذكاء ودهاء ، وحكمة قيادية رائعة فتمت ترقيتة سريعا من رتبة لأخرى أعلى .

وقد كانت تلك القوة ، التى أطلق عليها « القوة الألبانية » لأنها كانت تضم عددا كبيرا من الألبان ، غريبة فى تشكيلها حيث تجمع داخلها جنودا كانوا قطاع طريق ولصوص ، اللهم إلا قلة قليلة من بينها محمد على التركى المسلم ممن كانوا جنودا شرفاء وبواسل .

وصدر أمر عثمانى بتوجه القوة الألبانية إلى مصر فقد ترك جلاء الحملة الفرنسية من البلاد فراغا سياسيا وأمنيا رهيبا ، وعاد الأتراك ، والمماليك يعيشون فى الأرض فسادا ، يسرقون ، وينهبون ، يروعون الشعب ، ويفرضون الإتاوات قهرا وقسرا .

وما أن وصل محمد على مع القوة إلى مصر حتى شعر بأن هذه الأرض تجمع كل عناصر الدولة القوية إذا ما تخلصت من قوى الشر والظلم وقيود التخلف والتقاعس عن التحاقه بركب التقدم .

وأخذ محمد على يظهر أمام المصريين فى صورة الوطنى المخلص الذى يموت كمدا لما يراه من انهيار فى بلد يستطيع بلوغ المكانة التى تليق به بين قوى العالم أجمع .

وبدأ نجم محمد على يبزغ ، كما بدأ المصريون يلتفون حوله ، واكتشف قادة الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم ومحمد كريم أن مصر فى حاجة إلى رجل قوى كمحمد على ، وأفكاره العظيمة ، وعقليته الفذة ، وإلمامه الشديد بجميع المخاطر التى تحدق بمصر والعالم العربى ، التى أخذت قبضة الدولة العثمانية تضعف عليه مما يجعله عرضه لشتى أنواع الاستعمار الأجنبى ،

والاحتلال من ناحيـة ، أو استيلاء اللصوص وقطاعى الطـرق على ثرواته من ناحية أخرى .

وعندمـا ساعـدت أحوال المصريين مع الـولاة العثمانيين الذيـن أعقبوا خروج الفـرنسيين من مصر ، طلب المصريون تولية محمـد على عليهم فرفض السلطان العثمانى ؛ فحاصروا القلعة خاصة بعـد ما نجح خورشيد باشا والى مصر فى استصدار فرمان من الباب العالى بعودة القوة الألبانية ورؤسائها من مصر .

وأمام قوة الإرادة الشعبية والوطنيـة المصرية التى قامت بممارسة ضغوط لا قِبَل للأستانة بها نزلت الدولة العثمانية على رغبة المصريين ، خاصة بعد أن اشتعلت ثورة الشعب على الأتراك ، وبالفعل تم عزل خورشيد باشا والموافقة على تعيين محمد على .

ومن عظمـة هـذا الرجل أنـه لم يسع لمنصب ، ولم يلهث وراء سلطـان ، ويكفى أن العلماء ، والنقبـاء ، والزعماء المصريين اجتمعـوا بدار المحكمـة فى يوم الاثنين ١٣ مـن مايـو عام ١٨٠٥ ، وأجمعـوا على عزل خـورشيد بـاشا ، وتعيين محمد على ثم توجهوا إليـه ، وقالوا له : « إنا لا نريد هـذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية » .

فقـال محمد على : « ومن تـريدونه يكـون واليـا ؟! قالـوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكـون واليـا علينا بشروطنـا لما نتـوسمه فيك مـن العدالـة والخير ، فامتنـع محمد على فى البـداية ، ثم ضغطـوا عليه فرضـى ، واحضروا له كـركا وعليه وقفطان ، وقـام إليه عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبسـاه إياه ، وكان ذلك فى وقت العصر ، ثم بعثوا من ينادون بذلك فى المدينة » .

وهكذا فازت إرادة الشعب ، وأثبتت الوطنية المصرية فعاليتها ووجودها وكان انقلابا خطيرا فى موازين القوة فقد تحدت مصر الدولة العثمانية ، وأجبرتها على الاعتراف بحق المصريين فى تقرير مصيرهم لأول مرة فى التاريخ الحديث ، كما كانت إرادة الشعب - لأول مرة - لها اليد العليا فى اختيار من يحكم البلاد .

ورغم أن تركيا خلعت على محمد على - مضطرة - لقب البشوية ، ورغم أنه قد جرت العادة على أن ينغمس الولاة فى ملذاتهم ، ويجرون وراء شهواتهم ولا يهتمون إلا بجمع المال ، وفرض الضرائب ، والتنقل بين أحضان النساء ، وارتكاب شتى أنواع الجرائم ، وعدم توخى العدل ، ونهب ثروات البلاد .. رغم كل ذلك ، كان محمد على نموذجا مختلفا تماما . لقد كان فى جعبته ما هو أغلى ، وأقدس ، وأهم بكثير من تلك الصغائر التى لم تكن لترضى رجلا عظيما نادر الوجود كمحمد على .

لقد شعر محمد على منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها الحكم أنه جلس على عرش مملكة عظيمة ، أفسدها ولاتها السابقين وسياساتهم التخريبية ، فقرر انتهاج سياسات أخرى من شأنها الارتقاء بمصر وأعزازها كدولة إسلامية ، فعكف على العمل المضنى والسريع ، وبدأ الإصلاح الشامل ، وبناء قوة تصون تراب الوطن ، وتحمى حماه .

فى البداية ، رأى محمد على أن الإصلاح لا يمكن أن يتم دون القضاء على اللصوص ، وسارقى ثروات البلاد ، وكسر شوكة المماليك الذين يعيثون فى البلاد فسادا .

وبالفعل قضى محمد على على المماليك وألغى نظام الالتزام الجائر ، وقضى على القوات العسكرية القديمة وتخلص من الجنود الغير نظاميين .

ويبدو أن تولى هذا الرجل حكم مصر بهذه الطريقة المثيرة ، قد فتح أعين الإنجليز ، الذين شعروا بخطورة هذا القائد العظيم ، فأرسلوا حملة بقيادة فريزر فى عام ١٨٠٧ ، واتصلوا بالمماليك لمساعدتهم على استعادة حكم مصر .

ولكن محمد على وبمساندة الإرادة الشعبية تمكن من هزيمة الإنجليز الذين لم يجدوا فى النهاية مفرا من الجلاء عن مصر .

وفى عام ١٨١١ وبينما محمد على يقاتل لمحاربة فلول المماليك الهاربة هنا وهناك ، مع مراقبة أمرائهم مراقبة لصيقة حتى لا يستعيدوا نفوذهم من جديد ، طلبت تركيا منه إرسال جيش إلى الجزيرة العربية لمحاربة الوهابين ، وخشى الرجل من استيلاء المماليك على السلطة فى مصر ، فقرر التخلص منهم بصفة نهائية ودبر مذبحة القلعة ليخلص البلاد والعباد من شرهم .

وبدأ محمد على فى ظل الاستقرار الأمنى الجديد فى بناء الدولة الحديثة متسلحا بآخر ما وصل إليه العالم المتطور ، من خلال استقدام العلماء أو إرسال البعثات حتى أصبحت مصر أقوى دولة فى الشرق الأوسط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد اعتمد محمد على فى بناء الدولة على تكوين جيش مصرى جديد وأسطول قوى يحمى سواحل مصر ، وتنظيم الإدارة وإنشاء الدواوين (الوزارات) والارتقاء بالتعليم بفتح المدارس و« الكليات » ، وعمل نهضة فكرية ، والنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة .

وقد أثبت الجيش المصرى الجديد كفاءة نادرة فى حروبه فى الشام وآسيا الصغرى لتنمية موارد مصر ، وحماية البوابة الشرقية ، وأنشأ محمد على ترسانة الإسكندرية واشترى سفن حربية من أوروبا حتى أصبح للبلاد أسطول

رهيب دفع إنجلترا وفرنسا وروسيا للتآمر عليه ، ومحاولة تحطيمه فى موقعة نوارين عام ١٨٢٧ .

وعلى مستوى التعليم أنشأ محمد على المدرسة الحربية - الكلية الحربية اليوم - والمهندسخانة (الهندسة) والطب والألسن والصيدلة ، والزراعة ، والطب البيطرى ، والفنون والصناعات ، والمدارس الابتدائية والثانوية ، وبعث أبناء مصر إلى الخارج وأنشأ مطبعة بولاق عام ١٨٢١ ، وأصدر صحيفة « الوقائع المصرية » والكتب الثقافية .

وفى الزراعة نحن ندين لهذا الحاكم العظيم بمعظم إنجازاتنا التى ورثناها فى عام ١٩٥٢ ، وقمنا - فيما بعد - بتخريبها وتدميرها للأسف !

فقد قام محمد على بعمل مسح شامل على الأراضى الزراعية وتحديد الضرائب على الفلاحين بعد توزيع الأراضى عليهم ، وقام بزيادة المساحات المزروعة ، واستصلاح مساحات واسعة شمال الدلتا ، وشق ترعا كثيرة منها المحمودية والمنصورية والباجورية ، وأنشأ القناطر العديدة لضبط عمليات الرى ومنها القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، ويكفى أن مساحة الأراضى أصبحت ضعف ما كانت عليه قبل حكمه .

وتمكن محمد على من تنويع الإنتاج الزراعى باستحداث أنواع جديدة ، وخاصة بالنسبة للقطن الذى أصبح أهم صادرات مصر .

كما اهتم محمد على بالتجارة وكان الأسطول المصرى وميناء الإسكندرية الذى قام بإصلاحه من ركائز صادرات مصر إلى العالم الخارجى .

واستطاع محمد على أن يسترد الحجاز من أيدى الوهابيين ، ويدخل الدرعية ويأسر عبد الله بن سعود أمير نجد ليخلص الحرمين الشريفين من

أيدى الوهابيين الذين كانوا قد عظم خطرهم فى نجد والحجاز وهددوا العراق والشام ، وأصبح ابنه إبراهيم واليا على الحجاز .

وضم محمد على اليمن والسودان بالإضافة إلى الشام والجزيرة العربية ، وأصبحت مصر أقوى امبراطورية فى المنطقة ، بل إن إنجلترا وحدها أو فرنسا وحدها لم تكن تستطيع أن تمتلك ما لدى مصر من قوة ونفوذ وسلطان .

لكن إنجلترا لم ترضَ عن التوسع المصرى وحاولت الضغط على مصر للخروج من اليمن، والجزيرة العربية والاكتفاء بمصر والشام والسودان .

وهكذا قامت فى الشرق دولة عربية كبرى كأول محاولة لجمع العرب فى كيان مستقل عن الدولة العثمانية .

وقد حاول مزيفو التاريخ تصوير هذا العملاق الذى وصفه الغرب بأنه « مؤسس مصر الحديثة » و « صاحب العقلية الخارقة » و « القائد العظيم » فى صورة الأجنبى الدخيل الذى حاول أن يبنى امبراطورية لنفسه ، ويستقل بثروات البلاد ، لإرضاء أطماعه ، ومصالحه . إنها البلاهة والسفه أن نقول هذا على هذا المحب المخلص الذى لم تعرف مصر أو العرب من يستطيع المرور بها فى هذا العالم المتلاطم الأمواج كهذا الرجل .

والسؤال هو لماذا جمع محمد على السلطات فى يده .. أليس لتحديث البلاد ؟! لماذا بَنَى الجيش .. أليس للدفاع عن مصر ؟! ونقل رقعة الحرب خارج الحدود المصرية .. لماذا يأمر محمد على بزراعة الأشجار على النيل التى قمنا نحن للأسف بقطعها ؟ لماذا أرسل المصريين فى بعثات إلى العالم المتقدم ؟، لماذا أنشأ مطبعة وأصدر صحيفة ؟ لماذا .. ولماذا .. ولماذا ؟! أسئلة وأسئلة رغم أن إنجازات هذا الرجل العظيمة لا تحتاج إلى كلام .

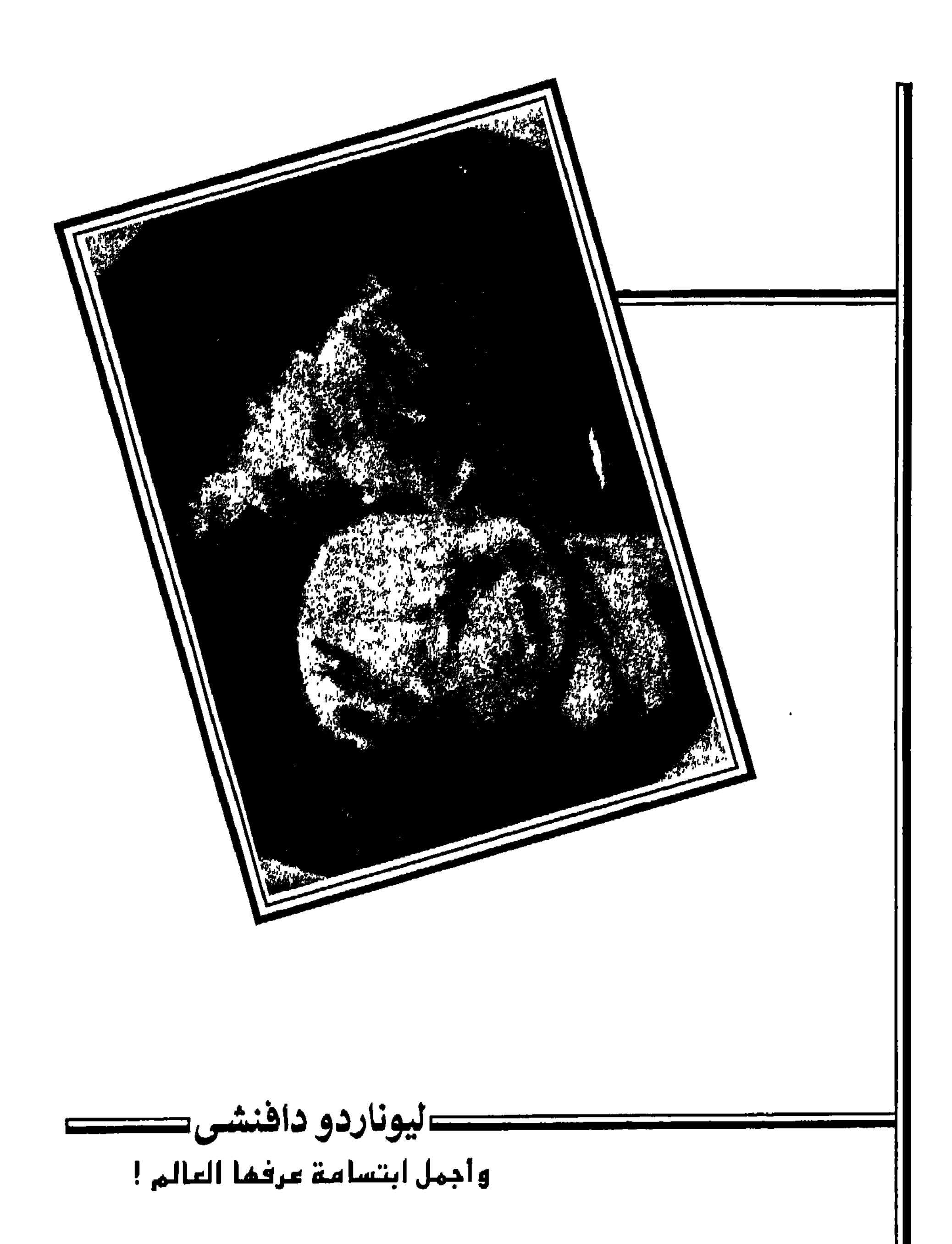
وهناك من يتهم محمد على بالدكتاتورية ، وهذا أمر فى غاية الغرابة لأننا نسقط من حسابنـا هنا الحقبة التـاريخية التى عاش فيها محمـد على ، ويكفينا أن نعرف أن فـرنسا أكبر الـديمقراطيـات فى العالم فى ذلك الوقـت كان حق الانتخاب فيها مقيدا بنصاب مالى قدره ١٥٠ فرنكا !! .

إن احــداً لا يستطيع أن يجرد محمـد على من عظمتــه أو يجرد المصريين الأوفيـاء غير الأفاقين أو المضللين من اعترافهـم بفضل محمد على على هـذه الأمة العظيمـة التى كان مـن العدل أن يحكمهـا رجل فى عظمة هـذا القائد الملهم ، والسيـاسى البارع ، والمصلح الأعظـم ، الذى أحب مصر أكثـر ممن عداه من الحكام الذين تعاقبوا عليها .

رحم الله محمد على ذلك الجندى المغمـور الذى مات أبوه وتـركه وحيدا يهيم على وجهه بـلا هوية حتى التقطه أحـد الولاه الذين تـوسموا فى الصبى خيرا ، واكتشفوا فيـه ما أثبتت الأيام أنـه لم يكن عرضيا ،وإنما كـان متأصـلا فيــه .

إن العظمة فى محمد على هى أن بطـولته وقوته وعظمتـه لم تكن نوعا من التهـور أو الطنطنـة أو الهلفطة ، لم تكـن عظمة محمـد على فى نبرات صـوت مجلجلة ، ولا عبـارات تهيج للناس مزلـزلة ، أو افتعال عـداءات ومشكلات وأحداث لا مبرر لها ، إن عظمـة محمد على كـانت تكمن فى أنه فعـلا عظيم بل إن ما فعله هذا الرجل يدفعنـا إلى القول بأنه فعلا أعظم الحكام فى تاريخ العالم كله .





ليوناردو دافنشى

وأجمل ابتسامة عرفها العالم !

الناس لا تعرف عنه سوى أنه كـان عبقرية فذة فى التصوير والنحت .. وما يذكر اسمه إلا ويتبادر إلى الزهن أعظم أعماله ، وأشهر لوحة فنية عرفها التاريخ ، ومع ذلك فقد كان صاحبنا عبقـريا فى مجـالات أخـرى كثيرة .. إنه أحد العظماء الذين قلما يجود علينا الزمان بمثله .

كان الفنان العظيم ليـوناردو دافنشى يرسم لوحتـه الشهيرة « الموناليزا » أو « الجيو كنـدة » كما تسمى ، عندمـا توقف فجـأة ، ووضع ريشته جـانبا ، واستأذن المونـاليزا الحقيقيـة التى تجلس أمامـه ببضع دقائق ، وبينما السيـدة الرائعة الجمال تنتظـر فإذا بعدد كبير من الموسيقيين يدخل الغـرفة ، ويبدأ فى عزف أرق الألحان .

فى البـداية ، شعـرت السيـدة الفاتنـة بدهشـة مـا بعـدها دهشـــة .. ارتكبت .. ضحكت .. بكت .. وهمت بـالانصراف فـإذا بـدافنشى يبلغهـا بمنتهى اللطف أن كل هؤلاء من أجلك سيدتى ! لقد بعثت فى طلبهم حتى يعزفوا لكِ بديع الألحان لكلى تحتفظى لى بابستامتك الرائعة .

وبمجرد أن وضع دافنشى اللمسات الأخيرة من لوحته الخالدة ، أمسك بقلمه ، وأخذ يكتب فى مذكراته مصـورا أحاسيسه ومشاعره فى هذه اللحظة التاريخيـة : إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هـذه اللوحة التهـاما ، وخاصـة هذا الفم الـرشيق الذى يشتهـى كل جسد أن يكـون له مثلـه ! أما صاحبه اللوحـة ، واسمها « موناليزا » زوجة « فرانسيسكو جيـوكوندو » أحد أعيان فلورنسا فقد قالت : « هذه اللوحة ستمد عمرى لقرون » !!

والحقيقة ، أن ما من مصور ، أو رسام عـرفه العالم انبهر بعمله ، أو افتتن بلوحـة رسمها كما حـدث مع دافنشى ، حتى إنـه قال : « سيظل العـالم بعد مماتى يتأمل هـذه اللوحة ويتسـاءل كيف نقلت ملامح هذه المرأة ، وخـاصة ابتسامتها بهذا القدر من العظمة » .

ولكن هذا الفنان العظيم ولد من رحم البؤس ، ونشأ بين أحضان الأسى والشقاء ، بل وكـانت هناك وصمـة عار لا ذنب لـه فيها ظلت تطـارده طيلة حياته ، وتحط من قدره أمام بعض الرعاع من الناس الذين كانوا ينظرون إليه بعيد الحسد .

فقـد أدرك دافنشى بمجرد أن وعى المحيط الخارج للفـراغ الذى يمثلـه جسده ، أن أمه ولدته نتيجة لزواج غير شرعى بأحد الموثقين واسمه «بيرو» .

وما أن عرف الصغير أن أبيه اسمه « بيرو » وأنـه يستطيع الوصول إليه ، حتى أدرك أنه مات ، وترك من أربع زوجات عشرة ذكور ، واثنتين .

وقد استمات دافنشى لكن يعترف إخـوته به كابن شرعى ، وأن يكـون له نسب كبقية إخوتـه ، إلا أنهم كانوا يخشـون إن فعـلوا ذلك ، أن يقاسمهم ما تركه الأب من ثروة ضخمة .

وهكذا وجـد دافنشى نفسه ، بـلا نسب ، وبـلا لقب يقدم بـه نفسه إلى الناس ، وقـد ظل دافنشى الـذى اختار لنفسه هـذا اللقب أن يقاسـى الفقر والعوز مع أمه حتى رحلى وتركته وحيدا فى بحر الحياة الهائج .

ويبدو أن القـدر أَبَى إلا أن يعوض صاحبنـا عما يكابده فى حيـاته خير تعويض ، فقد بزغ نجمه ، وعـلا اسمه ، حتى بلغ الآفاق ، ولم تقف مواهبة وشهـرته عنـد التصويـر والنحت وإنما تجاوز ذلك حتى كان هـو عبقريـا فى مجالات شتى .

فقد كـان عالما فى الميكـانيكا ، والتشريـح ، والاستاتيكـا والديناميكا ، والموسيقى ، والغنـاء ، والجيـولـوجيـا ، والهيـدروليكـا ، وعلم الحرارة ، والسمعيات والهندسة العسكرية والعمارة .

كما كان حجة فى علم الأخـلاقيات والفلسفة واللغة الـلاتينية ، كما كان موسوعة من العلوم والفنون .

وقد أثـار دافنشى دائما حوله خصـومات لا حـد لها ، خاصة وأنـه كان معبود النسـاء بقوة بنيـانه ، ورشـاقته ، ووسامتـه ، وعذوبتـة حديثـه ، وحلو معشره ، وقوة حجته .

ولأنـه ما من عظيم إلا وتعـرض للمكـائد والمصائب لكثـرة خصومـه ، وأعاديـه ، فقد كان على العبقـرى دافنشى أن يواجـه سلسلة لا حصر لها من المؤامرات والافتراءات ، والاتهامات ، والأكاذيب الملفقة .

فقد حاول خصومه الترويج لفكرة مؤداهـا أنه شاذ جنسيا وفاسد خلقيا كما بعث أحـد خصـومـه بشكـوى لا تحمل تـوقيعـا إلى القصر يتهم دافنشى بـالفسق ، ولكن التحقيق معه أثبت بـراءته من هـذه التهم مما جعل أعـداءه يشتاطون غيظا .

ورغم أن دافنشى قد اعتقد أن خصومه سـوف يتوقفون عن مهاجمته بعد كل ما جـرى إلا أنهم عادوا ليوجهون إليـه اتهاما عقوبته الإعـدام إذا ما ثبت عليـه .. هذا الاتهام هـو الكفر والإلحاد ، وقـد حـاول أعداؤه الاستفـادة من مـوقف دافنشى المعـروف للجميع من حيث كـراهيتـه للطقوس الكهنـوتيـه المعقدة وسيطـرة رجال الكنيسة ، والتصـاقه بدعـاة التحرر وترويجه لـلأفكار التحـــررية ، وكما استطـاع دافنشـى أن ينفى عن نفســه التهمـة الأولى .. والثانية .. والثالثة نفى الأخيرة وما بعدها أيضا .

ولكن شرور العالم الذى كان يحيط بـه ، جعله يغلق على نفسه ، ويحيا فى عالمه الخاص ، فقـد أحب العـزلة ووجـدها الحل الـوحيد للتركيـز والإبداع واتقاء شرور خصـومة ، ويقـول دافنشى عن ذلك : « الخلوة هـى أُمُ الحرية ، فإذا مـا كنت وحيـدا فأنت ملك لنفسك ، وإذا كنت مع رفيـق واحـد فلن تملك إلا نصفك » .

وقد كـان دافنشى يحلق كطائر فى آفاق المعـرفة الواسعـة ، كما كان يحلق أيضا كطائر فوق كل ما تحوى الطبيعـة من جمال ، كان يتسلق الجبال ، يرقب الطيور ، والحيوانات ، يدرس حـركاتها ، وكما بلغ دافنشى شهرة واسعة ، بلغ أيضا ثـروة عظيمة ، ولكنـه كان متقشفـا بطبعه ، يكـره المال ويحتقره ، وكـان يقـول عن المال : « كل مـا تنفقه على نفسك ملك لك ، وكـل ما تجمعـه ولا ينفعك فى حياتك ملك لغيرك ، على الرغم منك » .

وقد كـان لدافنشى قلبا يمكن أن يضـم بين جناحيه كل النـاس .. كان طيبـا لا يؤثـر الحيز على نفسـه ، يتألم إذا لمح الأسى فى عيـون الفقراء ، فكـان يجذل لهم العطاء دون انتظـار شىء ، وكان يحب مجالـة العامـة ، رغم تهافت حكام فلـورنسا وميـلانو وروما وسـائر أنحاء إيطـاليا على الاستئثـار به لكى يبدع لهم ، ويشيد لهم من وحى خياله القصور والتحف المعمارية .

وقد ظل دافنشى العبقـرى الذى وهب نفسـه لفنه فقط يتنقل بين المدن بإيطاليـا حتى رحل إلى فرنسا ، بعـد أن عرض عليه ملكها فـرانسوا الأول أن يرافقة ، وخصص له قصر يقيم فيه هـو وتلاميذه من محبى الفن ، وراتبا قدره ٣٥ ألف فرنك ، وكان وقتذاك ثروة هائلة .

ولكن دافنشى لم يعمل طـويـلا ، فقـد أُصيبت يـده اليمنى بـالشلل ، وبعد فترة وجيزة توفى ودفن فى مقبرة مؤقتـة فى الثالث من مايو عام ١٥١٩ ، ثم نُقل بـعد ذلك إلى « ديـر سـان فيو نتينو » تـاركا للعـــالم عدداً لا يُحصى من التحف المعمارية ، واللـوحات الفنية ، وتراث نادر فى علـوم شتى تجعـله من الخالدين .

□○□○□





بيرم التونسى

مأساة تنتهى بمأساة !

حياة هذا الرجل تبدأ بمأساة يمتزج فيها البؤس والشقاء ، وتنتهى أيضا بمأساة ، لا تقل ألما وعذابا عن مثيلتها فى حياته الأولى ، وفيما بين البداية والنهاية قصة كفاح عظيمة بطلها هذا الشاعر ، الذى قرر أن يحمل هموم الناس ، ومعاناتهم على كتفيه ليسير بهم فى بحور شعره ، ويفجر من خلالهم قضايا خطيرة لم تكن سوى قنابل ملغومة ، لا يجرأ الكثيرون على الاقتراب منها ! كما كان نبضا صادقا لرجل الشارع العادى ، ومتحدثا باسم الفقراء ، والغلابة ، ونصيرا للكادحين المهضومة حقوقهم فى مجتمع لا يعترف القائمون عليه إلا بسلطان الجاه ، والمنصب والمال .

هذا هو بيرم التونسى الذى بلغت قوة تأثيره فى الناس وعظمة مواقفه وموضوعاته التى عبر عنها من خلال أشعاره العامية وأزجاله للدرجة التى جعلت أمير الشعراء أحمد شوقى يقول مشيدا بمكانة صاحبنا : « إنى أخشى على الفصحى من بيرم » .

وتكمن عظمة هذا العملاق الراحل فى تعبيره الصادق عن الشخصية المصرية فى مطلع هذا القرن ، تلك الفترة الصاخبة بالأحداث المتلاحقة ، والتقلبات السياسية ، والاقتصادية الموجعة للسواد الأعظم من أبناء النيل .

وتكمن عظمة هذه القمة الأدبية الشامخة ، الذى استحق عن جدارة لقب « فنان الشعب » فى أنه لم يكن يتكسب من شعره على حساب مبادئه أو أخلاقياته ، فبيرم التونسى أَبَى إلا أن يكون فنه مرآة تعكس نبض المصرى الأصيل ، الذى ينام جوعا على أن يبيع كرامته ، ويتحرر من التزامه بقضايا بنى وطنه .

ولم يكن بيرم التونسى مجرد شاعر يستخدم الكلمة ، وإنما كان مقاتلا سلاحه الكلمة ، ولم تكن كلماته سوى رصاصات يصوبها نحو المتاجرين بقوت الشعب ، المغتصبين حقه الطبيعى فى أن يحيا مستقلا حرا ، يقرر مصيره بنفسه ، ولعل هذا هو الذى وضعه فى طليعة زعماء النضال ضد الاستعمار وعملائه ؛ الأمر الذى جعله يتجرع شتى ألوان العذاب والقهر .

ولعل مواقف بيرم الجريئة والصريحة هى التى قلبت عليه أناس كثيرين ممن يرفضون نهضة الشعب وثورته ضد قوى الظلم والعدوان ، أو سعى أبناء النيل لانتزاع أبسط حقوقهم المشروعة فى العيش فى حرية وعزة وكرامة .

ومن هذه المواقف تلك المعركة الشهيرة التى خاضها بيرم بشعره من أجل سعد زغلول زعيم الأمة ، أما طرف المعركة فقد كان مفتى الديار المصرية فى تلك الحقبة الشيخ محمد بخيت ، الذى عارض علانية سفر سعد إلى باريس لعرض القضية المصرية والمطالبة بحقوق الأمة المنهوبة ، وما أن كتب بيرم أبياته مهاجما الشيخ بخيت حتى قامت الدنيا ولم تقعد ، خاصة بعد ما أصبحت كلمات بيرم على كل لسان ؛ بل إن جموع الشعب خرجت ترددها أثناء المظاهرات فى شوارع المحروسة .

ولننظر سويا ماذا قال صاحبنا فى الشيخ بخيت الذى خرج عن إجماع الأمة وآثر أن يكون له موقف آخر يتماشى مع الإنجليز والقصر :

أول ما نبدى نصلى على النبى
نبى وطنى يلعن أبوك يا بخيت
تانى كلامى وفد مصر بلادنا
ولع شموعه والتقى الكبريت

تلاتين سنة يا مصر واحنا فى ظلمة

لما حدايتنا ربت الكتاكيت

راحم رجال الوفد وادى فرنسا

أم الأدب والحظ والتنكيت

وقد كان غضب المفتى شديداً للدرجة التى أصدر فيها بيانا شديد اللهجة يتهم فيه بيرم التونسى بالكفر والإلحاد !

ويرد بيرم يهجو الشيخ بكلمات لا ينطق بها سوى شاعرنا المشاغب ، والجرئ ، انظر إليه يقول :

يا بخيت يابو دومة يابو خلقة مشؤومة

لاديك بالشومة إذا كنتش ترجع

ضبوك متنيل عالقصر محول

تجرى وتتشندل وعامل واد مجدع

إتلم أحسن لك دا الشعب قاعد لك

بالصرمة يذلك إنمل واسمع

ثم يقلب بيرم المعركة إلى مزاح وفكاهة مستغلا خفة ظله فيخاطب الشيخ :

يا شيخ بخيت كلام فى سرك

حايعلقو لك فانوس فى زرك

ويهاجم بيرم بقسوة رؤساء الوزراء السابقين الذين أخفقوا فى التفاوض مع الإنجليز للجلاء عن القنال ، واكتفوا بإقامة المهرجانات ، وتوزيع الوظائف والترقيات على بطانتهم ومحاسيبهم ، انظر إليه كيف يقول :

أربع وزارات يحيروا فيكى يـا مفـاوضـات
الأولـة حيرت مـاهـر ومـاهـر مـات
والثـانيـة محمـود أهـو راجع لها بـالـذات
والثالثـة صدقى اللى هو صـاحب الكفاءات
لكن داوننج ستريـت واقف بكل ثبـات [1]
يقـول لنـا مسألتكـم مسألـة بـاشـوات
نحكم ونفـرح ونتمخطـر فى مهـرجـانـات
ومـوظفين تنتش وتنط عـالـدرجـات
وكلهـم عنـدنـا خُـدام فى الشركـات
البـدرشين والقنـال والملح والفـوسفـات

وقد كـان بيرم التونسى مصلحـا اجتماعيا من الطـراز الأول ، ولم يصلح معه الطرد والاستبعاد والنفى خارج البـلاد من أن يصرخ بأعلى صوته مطالبا بمقاومة الفقـر والجهل والمرض والقضاء على جميع الظواهـر السلبية فى حياة الوطن والمواطنين البسطاء .

ولنرى كيف قـاوم بيرم ظاهرة اللصوصية ، والنشل والتسـول وكيف قام بإحيـاء مشروع كـان قـد أقـره محمـد على بترحيل اللصـوص والفتـوات إلى الأراضى البور لاستصلاحها بدلا من أن يعيثوا فى الأرض فسادا :

لم اللصـوص والنشـالين والشحـاتين وحطهم
فى أرض بـور تصبح إذا مـا أصلحـوهـا ملكهم
الأرض جـابت والعبـاد اتخلصـوا مـن شرهم
وهم ذاتهم أصبحـوا أعيـان وأشيـا فللى
الفـاتحة لمحمـد على

(١) اسم الشارع الذى يقع فيه مقر رئاسة الحكومة البريطانية .

هنـا اللصـوص مئـات ألـــوف وأرضنـا بـور كلهـا
شيل من هنـا وإحـــدف هنـا وكل أرض وأهلهـــا
حسبـــة بسيطـة هينــة مش عـايـــزه لجنـة تحلهـــا
وتقـول يـــالجنـة تعـد لى وتقـول يـــالجنـة اتشكلى
الفـــاتحة لمحمـــــد على

تهذيب سجـون تطبيق قانـون دا كل دا رايح عبس
الاص حــاسب حسبتــه وعنـــده أحسن يتحبس
فى كل خمسين مـــرة سرقـــة واحـــدة فيهـــا ينكبس
ومن جـــديـد يـــرجع وجيبـــه من جيـوبنـــا يتملى
الفـــاتحة لمحمـــــد على

ما انساش فى يـوم رحت أشترى لأعز أحبابى كفن
مـــات الفقير فى يـوم عسير وجـــارى سلفنى الثمن
شـــال اللى هـــو المحفظـة وزاد على حـــزنى شجن
وبـــات على ورقـــة حشيش مع الحبـــايب مختلى
الفـــاتحة لمحمـــــد على

وهكذا كان بيرم منذ أن خرج إلى الناس شاعرا ، ويكفى أن أول قصيدة نُشِرَتْ لـه وكانت تنتقـد المجلس البلـدى فى مدينتـه الإسكندريـة - مسقط رأسـه - أثارت ثـورة عارمـة عليـه ، رغم أنها صادفت هـوى لدى النـاس ، وبيعت خمسين ألف نسخة الأمـر الذى جعله فى نهاية الأمـر أن يترك عمله ، ويصـدر مجلـة باسـم « المسلة » وكـان يحارب من خـلالها الاستعمار والفقـر والأحزاب المهادنة والذمم الخَرِبة ، والضمائر المنحرفة .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ أصر بيرم على التوجه إلى القاهرة ليعايش هذه الملحمة الشعبية عن كثب ، وأخذ يهاجم الإنجليز ، ورجال القصر والعملاء ، ورجال الدين المنحرفين حتى هاجم الملك فؤاد بعنف فاجتمعت أسباب كثيرة لنفيه خارج البلاد من خلال الإنجليز الذين اقنعوا المسئولين بالقنصلية الفرنسية بترحيله فورا إلى تونس .

وهناك قصة غريبة سبقت نفى بيرم التونسى ، فقد أصدر بيرم العدد ١٣ من صحيفته « المسلة » وكأنها صفعة قويةِ على وجه الملك ، خاصة عندما كتب قصيدة تحت عنوان « البامية الملوكى .. والقرع السلطانى » وكانت عبارة عن إسقاط يريد به بيرم فضح خبايا القصر ومن بينها مولد وريث العرش بعد أربعة شهور فقط ، تقول هذه القصيدة :

البامية فى البستان تهز القرون
وجنبها القرع المملوكى اللطيف
والديدبان داير يلم الزبون
صهين وقدم وامتثل يا خفيف
مرمر يا زمان مرمر
البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زرعة فى الديوان قرع أخضر

ويمضى بيرم فى قصيدته ليهاجم بدرجة أعنف وأقوى فيقول :

الوزة من قبل الفرح مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة قلت
سكتوا وخلوا البنات تتستر
مرمر يا زمان مرمر

وعنـدمـا غـادر بيرم الإسكندريـة مجبرا إلى تـونس ، وعمـره لا يتجـاوز السابعـة والعشرين كانت زوجتة حـاملالا ، وأكبر أولاده من زوجته المتـوفاة عمره سبع سنوات ، وهناك هاجم الاحتلال وسار على نفس النهج ، وبدأت السلطـات تحاصره فـاتجه إلى بـاريس حيث يفشل فى الحصـول على عمـل هناك ، وذهب إلى مدينة ليون ليعمل فى مصنع للحديد والصلب ، ويتعرض لحادث سقوط كتلة معدنية على ساقه ليترك المكان ، ومعه شهادة حسن سير وسلوك مكنته من العمل فى أماكن أخرى بفرنسا .

وقد انفعل بيرم بالتقدم والمدنية فى أوربـا ، وأخذ يطالب رفاقه فى الشرق بـالنهضـة والصحـوة وكتب يقـارن بين الأوضاع السيـاسيـة والاقتصـاديـة والاجتماعيـة فى أوربـا ومثيلاتها فى العـالم الغـربى حتى أدق الأشيـاء وأبسط مظاهر الحياة ، وصفها هنا وهناك ، وعقد مقارنة بينهما فيقول مثلا :

هـاتجن يـا ريت يـا خوانـا مـا رحتش لنـدن ولا بـاريس
دى بـلاد تمدين ونضـافـة وذوق ولطـافـة وحـاجـة تغيـز
مـا لقتش جـدع متعـافى وحـافى ومـاشى يقشر خص
ولا شـاب مشمرخ أفنـدى معاه عـود خلفه ونـازل مص
ولا لب أسمـر وسـودانى وحمص وانـزل يـا تقـزقيـز
حـاتجن يـا ريت يـا خوانـا مـا رحتش لنـدن ولا بـاريس

وعنـدم عـاد بيرم فى عـام ١٩٣٨ متسلـلا إلى مصر بعـد عشرين سنـة بالمنفى أخـذ يتحدث بلسان الفقـراء والغلابة والبسطـاء الكادحين ليل نهار دون جدوى ، حيث تتردى أحوالهم وتسـوء يوما بعد يوم بينما يتـاجر الآخرون بقوتهم ، فيقول على لسان العامل المصرى مثلا .

ليـــه أمشي حفيـــان وأنـــا منبت مـــراكيبكم
ليـــه فـــرشي عـــريـــان وأنـــا منجـــد مـــراتبكم
ليـــه بيتـي خـــربـــان وأنـــا نجـــار دواليبكم

هـي كـــــده قسمتـي ؟
الله يحاسبكـــــــم

ســـاكنين عـــلالى العتب وأنـــا اللى بـــانيهـــا
فـــارشين مفـــارش قصب نـــاسج حـــواشيهـــا
قـــانيين ســـواقـى دهب وأنـــا اللى أدور فيهـــا

يـــارب مـــا هـــوش حســـد
لكـن بعـــــاتبكـم !!

من الصبـــاح للمســـا والمطـــرقـــة فيـــدى
صـــابـــر على دى الأســـا حتـى نهار عيـــدى
ابـــن السبيـــل انكسنـــى واسحب هـــرابيـــدى

تتعـــــروا مـن مشيتـى
وأخجـل أخـــــاطبكـم

ليـــه تهدمـــونى وأنـــا اللى عـــزكم بـــانـى
أنـــا اللى فـــوق جسمكم قطنـى وكتـــانـى
أهلى نهار دفنتـــــى مـــالقيتش أكفـــانـى

حتى الأسيـــة وأنـــا راحل
وســـــايبكـم

وحارب بيرم بقصائده النارية الإقطاع والامتيازات الأجنبية ، واستبداد العائلة المالكة والاحتلال الإنجليزى ولكن عظمة بيرم تكمن فى أنه لم يكن مصلحا سلبيا يطالب الآخرين برفع الظلم عن كاهل العرب بوجه عام والمصريين الذين يحيا بينهم على وجه الخصوص ، وإنما كان يعنف العرب ويزجرهم ، ويعاتبهم ليستنفز قواهم الكامنة ، ويستنهض هممهم المقعدة ، ويشعل فيهم نيران الثورة على أوضاعهم المزرية ، وبطبيعة الحال لم تكن قصائده تخلوا من التهكم والسخرية ، وخفة الظل التى تغلف كل أعماله الخالدة .

فقد كتب بيرم على سبيل المثال ينعى فيه على العرب خمولهم وتقاعسهم قائلا :

يـــــامصرى وأنت اللى هـــا ممنى مـن دون الكل
هـــزيـل ويحسبك الجاهـل عيـــان بـــالسل
من دى الكيـــوف اللى تصبر على كتر الـــذل
ونمت والعـــالم فـــايق قـــوم بص وطل
شـــوف الشعـــوب واتغص ودوب وارجع إنســـان

ولم يكن بيرم شاعرا محليا ، أو مصريا ، أو تونسيا فقط ، وإنما كان شاعرا قوميا التحم بقضايا أمته العربية فتناول حرب المغاربة ضد الأسبان وكتب عن زعيمهم عبد الكريم الخطابى .

وكما كان بيرم قوميا كان عالميا يتحدث بلسان الإنسانية جمعاء ، كتب عن الزعيم الهندى غاندى ، وهاجم حرق أمريكا للقمح ، وهناك شعوب تتضور جوعا ، وتغزل فى رشاقة اليابانيين .

وكتب بيرم روايات عدة فكتب شهر زاد ، ليلـة من ألف ليلة ، وعقلية وبعد عودة بيرم لمصر ، أخذت أشعاره تترجم فى قالب غنائى رائع .

وقـد جمعت بيرم « فنـان الشعب » عـلاقـات خـاصـة بأشهـر مطـربى ومطربات العصر ، فقـد كانت علاقته بأم كلثوم فى غايـة الظرف ، كان يصر على مناداتها بأسماء الـدلع ، وكانت هى تموت فى مـداعبته فكـانت تستقبل بعبارات فكاهية ومزاح غير عادى .

وقــد كــتب بـيرم لكـوكب الشرق منهـا « كل الأحبـة » ، « أهل الهوى ياليل » ، « شمس الأصيل » ، و « الأولـة فى الغـرام » ، « أنـا فى انتظـارك » و « القلب يعشق كل جميل » ، « فرحة هنية » .

وهكـذا كتب بيرم أكثر من ٣٢ أغنيـة لأم كلثـوم فكـانت بحق عاملا رئيسيا فى توهج كوكب الشرق وارتفاع أسهمـه ، وتربعت هذه العملاقة على قمة الهرم الغنائى فى العالم .

وقد التقى أيضا بيرم بسيد درويش وكتب له أخر أوبريت « شهر زاد » ورغم أن الأوبـريت مقتبس عن قصـة الأمــيرة التترية الجميلـة « شهر زاد » إلا أن بيرم حوله إلى رواية تفيض بمعانى المقاومة ، والكفاح وحب مصر .

وقد خاض الشاعر العظيم معركة أخرى ضد المرأة الشرقية المستسلمة والتى لا تعرف شيئا خارج حـدود المطبخ والبيت وهاجم عاداتها المتخلفة يقــول :

مـــا تمدغيـش للعيــــال الأكـل بأسنـــــانك
والنفـخ فى الأكـل سـم فعــــــــــرض ايمانـك
إخيـــــه عليكـى بقيتى خصلتـك ســـــودة

مــــا تسمعيش الكـــــلام تنشكى فى لســـــانك
مـــــــا تحسبيش مـن عما يلـك ربنــــــا يجبـك
بطن الـــــــولـــــد تـــــوجعــــه والأكـل يتلبك
بعـــديـن يخستك قــوى ويمـــوت بـــالعـــــربى
قلـت اللى فيهـــــــا بقــــــا وذنبك على جنبـك

وهكـذا كان بيرم عمـلاقـا عظيما فى شعره ، وفى مـواقفـه الوطنيـة ، وفى دعواته الإصـلاحية ، ومطالبته بالتحـرر من التبعية ، والتخلف ، والثورة على الاستعمار والإقطاع والامتيـازات وغيرها من مظـاهر الحيـاة السلبية فى مطلع القــرن .

وهكـذا ظل بيرم حتى لفظ أنفـاسـه الأخيرة فى الخامس من ينايـر عـام ١٩٦١ مخلفا وراءه تراث شعرى خالد ، وملحمة نسج خيوطها رجل عظيم .

وإذا كان هذا هو بيرم الشعب ، بيرم الثورة ، بيرم السياسى ، والمصلح ، والمقاتل بالكلمة ، فقد كانت حياته وخـاصة طفولته ، وصباه ، وصدر شبابه ملحمة أو بطـولة مطلقـة بمعنى الكلمة ، وتعالـوا بنا نتعـرف عن قرب على الشقاء ، والعذاب ، والإرادة والتحـدى فى قصة نجاح فنان الشعب .

ولـد محمود بيرم التـونسى بحى السيـالـة أحـد الأحياء الشعبيـة الفقيرة بالإسكندرية فى ٢٣ مارس عام ١٨٩٣ فى أسرة أقل من متوسطة بكثير . كان أبوه يعمل بدكان صغير لم يكن يدر الكثير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يبعث بـالصغير بيرم إلى كُتَّـاب الشيخ جـاد الله ، ولكن قســوة الشيخ وتجبره على صاحب السنوات الأربع من عمـره جعل صاحبنا يكره الكتـاب خاصة وأن الشيخ كـان حـاد المزاج سريع الغضب ينهـال على صغـاره بـالكلمات والصفعات حتى لأتفه الأسباب .

ويحاول بيرم إقناع الأب بإخراجه من الكُتَّاب ، فيتلق عقابا أشد من عقاب الشيخ ، ويذهب بيرم إلى الشيخ دون فائدة ودون أن يتعلم شيئا ، وفى النهاية يسحب الأب الابن ويضعه فى المكان الذى يمتلكه .

وعقب خروج بيرم من الكُتَّاب ، وكان فى السابعة ، كشرت الحياة له عن أنيابها ، وخرجت إليه كما يعرفها الكبار ، معقدة ، مؤلمة ، ومضجعة .

فقد شهد بعينه موت شقيقته التى كانت تتفتح لتوها للحياة ، وانهارت حياة الأسرة الآمنة .

فقد اكتشفت أم بيرم أن أبيه تزوج فى السر من راقصة كانت تتردد عليه فى دكانه ، وأنه استأجر شقة لها فى حى الأزاريطة رغم علمه بسوء سمعتها فى الحى .

وأخذت الأم تجلس إلى الصغير فى المساء لتحدثه عن أصل جدوده التوانسة ، وعن أبيه المزواج الذى تعد هى زوجته الثانية ، والفنانة رقم ٣ فى القائمة .

وعرف بيرم الصغير أن جده لأبيه كان قد رحل من تونس إلى الإسكندرية بعد أن رفضت عائلته لأبيه الاعتراف بانتسابه إليها لحرمانه من مشاركتهم الميراث .

وبدأ الحزن يتسلل إلى قلب بيرم ، فانتحى جانبا وعزف عن مشاركة رفاق الطفولة ألعابهم المسلية ، ويحاول والده استئناف عملية تعليمه ، فيبعث به إلى مسجد المرسى أبو العباس حيث كان هناك معهد دينى .

ورغم أن بيرم بدأ يحب الدراسة ، ويرتبط بالمعهد ويحاول استعادة ما فاته ، إلا أن القدر كان له بالمرصاد ، فقد مات أبوه وهو نائم فى بيت الراقصة .

وأخذت تسرى فى الحى شائعات حول أن الأب لقى مصرعه بسبب سم بطىء دسته له الراقصة لتستولى على ثروته التى كان يحتفظ بها حول خصره فى حزام به مبالغ كبيرة .

ورحل الأب ووجـدت الأم نفسهـا عاجـزة حتى عن إيجاد رغيف خبـز للصغير بيرم وشقيقته من زوجة أبيه الأولى التى كـانت تعيش معهم بعد وفاة أمهـــا .

ومما زاد الطين بلة ، هو استيلاء أولاد عم الأب الميت على الدكان ، وأمام وطأة الفقـر ، وحـرارة الحاجة انقطع بيرم عـن الدراسـة وذهب يعمل صبيـا بدكـان بقالـة حتى يجد لأمه ولأخته ولنفسـه ما يسـدوا به رمقهم ، ويسترهم أمـام الناس ، ولأن بيرم الـذى لم يكن قـد تجـــاوز عامــه الثانى عشر كـان شغوفـا بالغنـاء الشـــعبى والمواويل فقـد ترك ذات يـوم الدكـان ليذهب إلى مولـد « المرسى أبو العباس » ليُطرد مـن عمله ، وقال صاحب الـدكان لخال بيرم : هذا الولد لا يصلح إلا للعمل فى تياترو » .

وقد حـدث أن تعرف بيرم على أحـد البنائين من أصدقـاء خالـه ، وكان يحكى لـه القصص الشعبيه ، والحكـايات الفلكلـورية حتى بـدأ بيرم يعشق هـذه الحواديت ، وأخـذ يقتصـد من مصروفـه أو أجـرة يـومـه ليشترى كتب الأساطير الشعبيـة مثل « ألف ليلـة وليلة » و « أبـو زيد الهلالى » و « عنترة » وغـيرها .

ولم يكن بيرم يتحرر قليلا من آلامه وأحـزانه لرحيل والده ، حتى رحلت أمـه إلى بيت رجل آخـر تـزوجته وكـان قـريبـا لها ، واصطحب زوج الأم بيرم ليساعده فى صنع هوادج الجمال الذى كان متخصصا فى صنعها ؛ ولكن بيرم كان يموت كل يوم من كم وعبىء الأثقـال التى كان يحملها ويقول : إن هذه

المحنة خلقت لـه عضلات وأكتـافا جعلتـه قادرا على العمل الشـاق والحياة الصعبة عندما نفى خارج الوطن .

وبقى بيرم على هـذا النحو حتى مـاتت أمـه متأثرة بخُـرَّاج بصدرهـا ، وهكذا وجـد الصبى نفسه وحيـدا فى عام ١٩١٠ ، وشعـر بالضيـاع ؛ ولكنه استجمع قواه الصغيرة ، والتحق بدكان أبيه وكان عليه خلافات بعد استيلاء أقارب الأب عليه ، واضطروه هو وأخته التوقيع على بيع انصبتهما بملاليم .

وبهذه النقود القليلة اشترك بيرم مع أحد الصيادين فى دكان بقالة ، ومن خـلال الكتب التى كـان يقطعها للبيع فى ورقهـا تعـرف على ابن عـربى من خلال كتاباته الصوفية فأخذ يبحث عن أعماله وأعمال غيره كالمقريزى .

وبدأ بيرم يهتم بقضيـة الوطن ، ورفض أن يقف موقفا سلبيـا من الحركة الوطنية .

ووسط هذه الحياة المتلاطمة الأمواج أخذ قلب بيرم يضطرب ، وأخذت نفسه تتأرجح بين حيـاة الضياع والرغبـة فى الاستقرار ، ومن هنا بـدأت فكرة الزواج تراوده .

وبسبب الزواج والاهتمام الجارف بـالقراءة ، أفلس الدكـان بسبب عدم دفع الزبائن من أرباب الشكك (البيع بالأجل) للمستحق عليهم .

ويبيع بيرم بيت أمه المتواضع ليتاجر بثمنه القليل فى صفائح السمنة .

ومـا أن اتجـه بيرم لإصـدار الصحـف والشعـر والروايـة والأغـانى حـتى انتقل إلى حياة أخـرى ؛ ولكن لم تنقطع فيها صلتـه برجل الشـارع بل كانت كل حياته وسط العامة يتفاءل معهم ، يعلمهم ، ويتعلم منهم ، يقاتل معهم ، ويدافع عنهم .

وينجب بيرم بعد ست سنوات زواج ولدا أسماه « محمد » ، وبنتا أسماها « نعيمة » وذات يوم فقد بيرم زوجته التى لقيت مصرعها متأثرة بمرض التيفوس .

وتزوج بيرم مرة أخرى ليجد من يرعى الطفلين ولكن الزوجة الجديدة تتبرم منهما ، وتتعامل معهما بقسوة فبعث بهما إلى حماته .

ويعود بيرم من منفاه ليجد امرأته تزوجت من غيره بعد أن حصلت على حكم بالطلاق منه .

ويعمل بيرم بعدة صحف كجريدة « الزمان » و « أخبار اليوم » ويصدر كتبه الواحد تلو الآخر حاملا كل الصور الساخرة فى مجتمعنا بطريقة تجعله أقرب إلى الجراح الماهر الذى يمسك با لمشرط ليقدم من خلال الميكرسكوب (قلمه) شرائح دقيقة تحمل كل ما يجرى فيه ، وما يحيط به من سلبيات وعيوب .

ويعود بيرم إلى زوجته السابقة بعد طلاقها من الرجل الذى كانت قد تركته من أجله إبان وجوده فى منفاه وأنجب منها ، ولدين ، وبعد ما يتسلم بيرم جائزة الدولة التقديرية فى عام ١٩٦٠ تقديرا لكفاحه فى مجالى الأدب والفن تشتد عليه وطأة مرض الربو الذى كانت أعراضه قد ظهرت عليه فى أوائل عام ١٩٥٤ .

وفى عام ١٩٦١ يرحل بيرم العظيم متأثرا بمرضه الذى لم تفلح معه جميع محاولات الأطباء ، ليسدل الستار على حياة عملاق عظيم ترك تراثا خالدا ، وقيما فنية شامخة ؛ رغم أنه لم يكن قد بدأ حياته إلا من تحت الصفر !!

□○□○□





وليام شكسبير

عبقرية تجاوزت حدود الزمان والمكان !

لا يـذكر التـاريخ أن أديبا ذاع صيتـه ، وبلغت شهرتـه الآفاق ، وكـان مشـارا لحديث الناس فى شتى أنحـاء المعمورة ، كما كـان عليه الحال مع هـذا العبقرى الفذ . ولا يمكن أبدا أن يذكـر مؤرخو الأدب العالمى العصر الذى عاش فيه إلا ويضيفون إليه اسمه حتى يميزوه عما سواه من عصور .

وقد بلغت عظمـة هذا العملاق المبـدع أوجها إلى الـدرجة التى أصبح فيها شعب كالشعب الهندى مثلا يقبل على أعمالـه بشغف ، ويرتبط بإنتاجه الرائع بنفس القدر الذى نجده لدى الشعب الإنجليزى الذى ينتمى إليه .

هذا هو وليام شكسبير أعظم أدباء العالم وأكثرهم خلودا على مر التاريخ الإنسـانـى كلـه ؛ وقــد طغت شهـرة هــذا الـرجل حتى على جميـع الملـوك والسلاطين والأبـاطرة الذين صـالوا وجالـوا ، وقطعوا الأرض شرقا وغـربا .. شمالا وجنوبا .

وإذا ما قمنـا باستثناء الـرسل والأنبياء من أصحـاب الأديان الكبرى . فليس فى أصحـاب الأقلام منذ كتب الإنســان بالقلم من يضـاهى شكسبير عبقرية أو عظمة .

كان شكسبير شاعرا مسرحيا فذا، وممثلا ومؤلفا ، ولم يجد التاريخ بمثله، رغم نشأته المتواضعة وبيئته الفقيرة ، وقسوة ظروف حياته ، التى كان يمكنها أن تسقط أى إنسان عن ظهر الحياة ، وتلقى به بعيدا عن دائرة الضوء !

وقـدم شكسبير للإنسـانية مسرحـا ليس لـه مثيل ، فقد كـان أعظم من يقـدم أفكارا خـالدة تعبر عن النفس البشريـة فى شموخهـا وسقوطهـا ، وفى

سموها ، وفى انحطاطها حتيإأننا عندما نراها اليوم بعد خمسة قرون من الزمان نشعر أن الرجل يحيا بيننا ، ويستمد أفكاره من همومنا ومشكلاتنا !

ترك العملاق الخلاق تـراثا إنسانيا رائعـا قوامه ثمانية وثـلاثين مسرحية وأكثر من ١٥٤ قصيدة لطالما كان الناس يقتبسون منها جملا مأثورة ، وأقوالا حكيمـة ، يستعينون بها عنـدما يبغـون تلخيصـا لموقف إنسـانى أو سلـوك بشرى ، أو غريزة فطرية ، أو خصلة مكتسبة من البيئة والظروف المحيطة .

ورغم من أن شكسبير كان يكتب بـالإنجليزية فأعماله مـوجودة فى كل لغـات العـالم ، وظهـرت على كل المسـارح دون استثنـاء . ورغم رحيل هـذا الأديب الكبـير منذ أكثر من ٤٠٠ سـنة إلا أن دارسى المسرح وباحثيـه لا يـزالون يكتشفـون كنوز عظمتـه ، كما أن الشعوب لا تـزال تقبل بنهم على روائعه الخالدة .

وقـد ولـد شكسبير فى عام ألف وخمسمائة وأربعـة وستين فى أسرة ريفيـة بسيطة ، لم تهتم جيدا بتعليمـه فى طفولته اللهم إلا مدرسة متواضعـة زجوا به فيها لتعلم القراءة والكتـابة . وظل شكسبير يدرس فيها حتى حلـت ضائقة مالية بأبيه تركها على أثرهـا وأخذ يعمل مع أبيه حتى بلغ الثامنة عشرة فزوجه بـ « آن » التى كانت تكبره بثمانى سنـوات لينجب منها « سوسن » ، وتوأمين هما ذكر وأنثى هما هامت وجوديث .

وبعد أن إتسعـت مسئوليات شكسبير ، وتعـاظمت متطلباتـه ، أصبح لزاما عليه أن يبحث عن مورد للرزق غير مـا يتقاضاه من عمله مع أبيه الذى صار قليلا مضطربا لا يستقر ولا يثبت على حال .

ولما كان شكسبير قد وجد فى نفسه قدرة على التأليف والتمثيل المسرحى ، ظلت معه منذ الطفولة ونمت وكبرت أثناء عمله المتواضع مع أبيه ، فقد قرر أن يتجه وجهة أخرى ، ويغير مجرى حياته .

شد شكسبير الرحال إلى لندن ، وأخذ يقدم نفسه كممثل أولا ، وبعد تعثر وفشل متكرر أُسنِدَت إليه عدة أدوار صغيرة حتى عمل فى أكبر الفرق المسرحية فى بلاده ، وهى فرقة « الإيرل أوف لسيستر » التى أباحت الملكة « إليا صابات » إقامة المسارح فى العاصمة من أجلها .

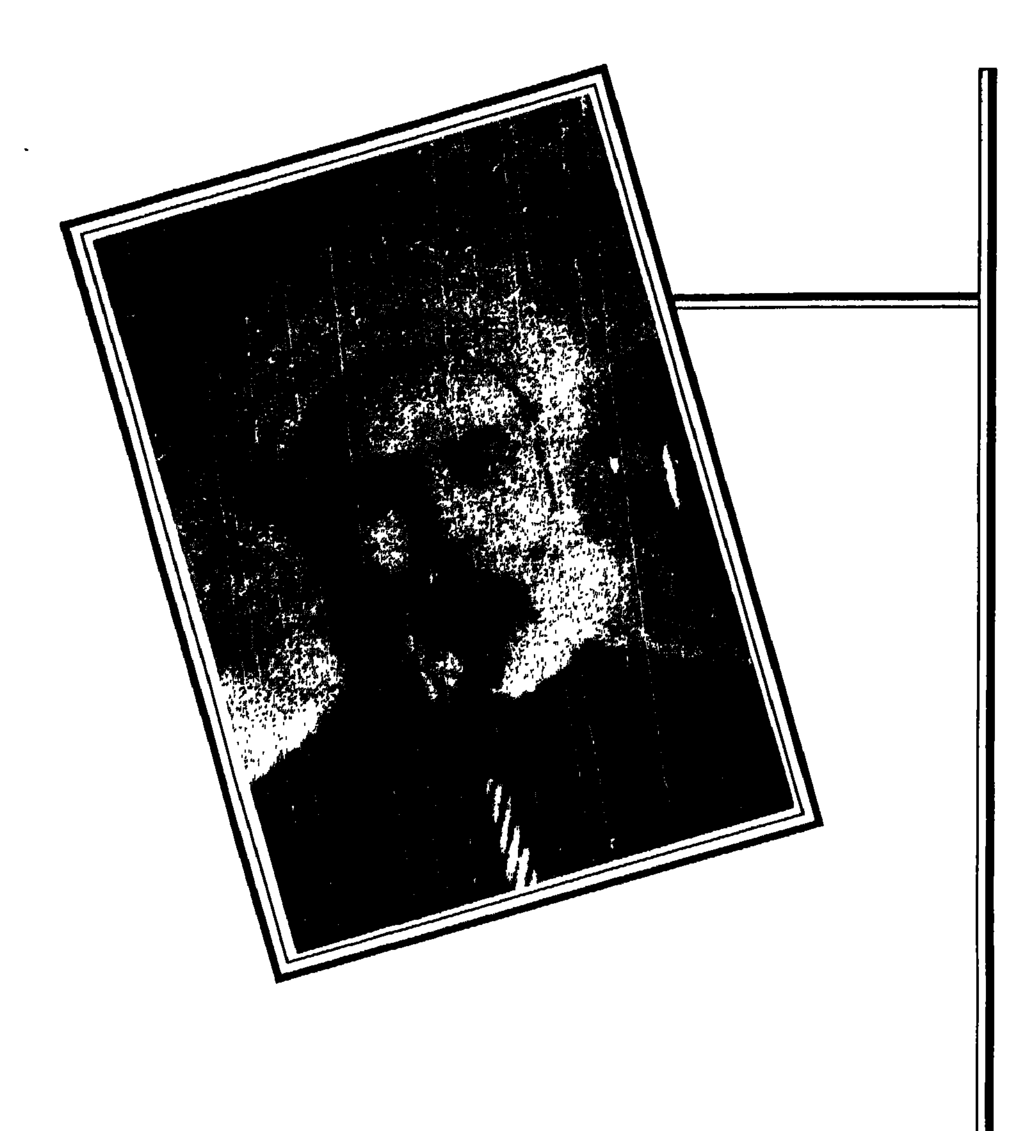
ومن هنا بدأ شكسبير رحلة مع المجد ؛ فقد ظهرت عبقريته واضحة ، جلية ، فألف أعماله المسرحية الخالدة مثل « حلم منتصف ليلة صيف » ، « هاملت » ، « عطيل » ، « ماكبث » ، « الملك لير » ، « تاجر البندقية » ، « هنرى الرابع » ، « روميو وجوليت » ، « يوليوس قيصر » ، « أنطونيو وكليوباترا » ، « العاصفة » ، « هنرى الخامس » ، « كما تحب » ، « زوجات وندسور » ، « هنرى الثامن » ، « ترويض النمرة » ، « الليلة الثانية عشرة » وغيرها من رائعات المسرح المجيدة .

هذا هو شكسبير أعظم رجال المسرح والأدب فى التاريخ الذى كانت عظمته وعبقريته واضحة فى القيام بعملية خلق فنى للطبيعة الإنسانية وليس مجرد تصوير لها أو تعبير عنها .

فقد كان خلق الشخصية فى عالم الفن هو رسالة شكسبير .. خلق الشخصية .. شخصية الإنسان فى طبيعته المتنوعة المتقبلة حيثما كان وكيفما كان .. مئات الرجال والنساء والأطفال فى كل سن ، ومن كل مزاج ، وعلى أية حالة ، فى كل طبقة تجمعهم مسرحيات شكسبير .

فقد كانت تضم الطيب و الخبيث ، الصريح والغامض ، السعيد والحزين ، الطامع والقانع ، العظيم والحقير . لقد كانت عظمة شكسبير تكمن فى كون مسرحياته لا تنقضى مع نزول الستار ، وإنما تبقى طويلا لمئات السنين نلتقى بها ، ننفعل معها ، وتستمتع بها كما لو كانت جديدة ، تعرض لتوها !!

□○□○□



الإمام محمد عبده

زعيم الإصلاح الفكرى والدينى

كـان يمكن أن ينتهى مصير الغـلام الصغير كما آل إليـه مصـير بقيـة أخوتـه ، وكان يمكن أن يفقـد الفكر العـربى أحد زعماء الإصـلاح ، وقادة التنويـر العظام الذين لا يزالـوا يمثلون نبعا لا ينضب معينه - فعـلا - كان يمكن أن نفقـد ثروة بشرية هائلـة لولا أن شـعر الأب الذى هزمه الفقـر ، أن ابنه لـديه ما يبعث على الاعتقـاد بأن حرمانـه من العـلم جريمـة فى حـق هـذا العـالم .

فقـد وجـد الأب أنـه حتى بـالنسبة لأب مثلـه يقـاسى ويـلات العـوز والحاجة ، فى عصر لا يرحم الفقراء ، والضعفـاء ، لا ينبغى تجاهل ذكاء غلام كهذا ، يشهد كل من يراه بأنه سيكون نابغة عصره .

وبعـد تفكير عميق ، اهتـدى الأب إلى قـرار لم يتخـذه من قبل ؛ بل لم يحاول التفكير فيـه . لابـد أن يضحى بكل شىء ، ويتحمل كـل الصعـاب حتى ينتـزع الصغير البرئ من بـراثن الجهل ، ويضىء جنبـات حياتـه بنـور العـلم !

هكذا كانـت البداية الحقيقية المبكرة لـلإمام محمد عبده الـذى يعد من أكبر المفكرين والمصلحين فى تـاريخنا العربى والإسـلامى كله ، ذلك الشيخ الجليل الذى لعب دور القائد الملهم ، والعالم البصير ، والمثقف المستنير .

فقد وُلِدَ محمـد عبده لأبٍ فلاح بالكـاد يجد قوت يومه . هـذا الفلاح لم يجد مفرا من أن يدفع بجميع أبنائه إلى الأرض يـزرعون ويحرثون . إنه لم يفكر حتى فى تعليمهم ، فقد كانت إمكانياته لا تُـذْكَر ، بل كان أحيانا يضطر إلى الاستدانه لكى يجد ما يسد به رمق أسرته الكبيرة .

وعندمـا رزقه الله بابنه محمـد فى عام ١٨٤٥ حلت البركة بـالبيت وش
الجميع بأن هناك شيئا ما تغير فى المنـزل ، لقد كان قدوم الصغير «وش الخ
مبعثـاً للسعـادة وعمت البيت الفـرحـة ، وأحست الأسرة بأن الله قـدم إلي
هدية عظيمة .

ومنذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها محمـد عبده يشب عن الطوق ، بدأ
معالم نبوغه تظهر ، وأخذ ذكاؤه الحاد يظهـر بجلاء ، أما ميله للتعلم فقد ك
فطريا ، ولا يقف عنه أى حد .

ويبدو أن الفلاح المصرى الأصيل قد أدرك بفطرته أن ابنه يعد بالكثي
فقرر أن يدفعه إلى الطريق الذى يظهر فيه مـواهبه ، فدفع به إلى كُتَّـاب قر
« محلة نصر » بمحـافظة الغربيـة حتى يُعَدُّ لما هـو أكبر بكثير . وحفظ الغ
القـرآن على يد الشيخ ولكن كـان هذا هـو كل مـا يمكن الحصول عليـه ،
الشيخ .

وقـد حاول الغـلام أن يستـوعب دروس شيخـه الفقهيـة المتواضعـة
الكتاب ، ولما وجد الأب أن قدرات ابنـه - كما يبلغه بذلك بعض المشايخ
أكبر بعث به إلى الجامع الأحمدى بطنطا يمضى هناك ثلاث سنوات ، ثم نة
بعد ذلك إلى الجامع الأزهر .

وبين أحضان الأزهر تفتحت مدارك الصغير وأخـذ العلم يهز وجدان
ويزلزل كل كيانه ولكن طـريقة التعليم هناك لم تكن تُعجب الغلام ، فقض
عـامين لم يستفد منها الكثير على أيـدى معلميـه من الشيوخ ، ولكنـه أدر
قيمة العلم وقرر البحث عن مخرج من هذا المأزق .

وما أن فكر محمـد عبده مليًّا فى مشكلته حتى وجد أنـه ليس هناك مفر من تلقى العلم بنفسه ولنفسه فابتدع إسلـوبا فى المطالعة والتحصيل ، وأخذ يستلذ بما يقرأه ، فاستعذب العلم ، فمضى يجمـع منه كل ما تصل يده إليه ، وهكذا بلغ محمد عبده مدى طويلا فى ارتشـافه من بحر العلوم ، وأحرز منها جانبا كبيرا كان ذخيرته وعدتـه فيما بعد ، وقد تزوج محمد عبده فى تلك الفترة وقبل أن يصـل العشرين من عمـــره ، حتـى لا ينشغل عن تحصيـل العلم والدين وقد كان الأب وراء هذا القرار خاصة وأن الله قد مَنَّ عليه ، ووسع من رزقـه ، فقـال لنفسـه : لماذا لا أرعى الفتـى مـا دام مجتهـدا ويعـد بـالكثير ، وبالفعل استقرت نفسية الفتى وواصل اغترافه من العلم .

وقـد عمل محمـد عبـده إلى جانـب الأزهر فى عـدة أعمال كـالتـدريس والترجمة ، وظل كـذلـك حتى وفـد إلى مصر المفكـر العظيـم « جمال الـدين الأفغـانى » فيلسوف الإسـلام وتولى هـذا الـوافد العمـلاق تدريس المنطقـة والفلسفة فانخـرط محمد عبده فى سلك تلامـذته الذين كانـوا يضمون نوابغ المصريين .

وقد أظهر محمد عبده أمام الأفغـانى قدرات عظيمة ، وأفكاراً إصلاحية رائعة ، وعقلية مرتبة ومنظمه ، وإحساسـا وطنيا مرتفعا ، كما كان محمد عبده أقرب تـلاميذ الأفغانى وألصقهم بـه ، وأكثرهم قـدرة على مباراته ، وعنـدما أُبعِـدَّ الأفغانى من مـصر قال يـوم وداعه : « قـد تركت فيكم الشيخ محمـد عبـده ، وكفى بـه لمصر عـالما » ومن هنـا بـدأت رحلة جهـاد محمـد عبـده ، وكفـاحه ، فأخـذ يكتب فى الصحف بجرأة وصراحـة عظيمة ، وتقلـد بعض المنـاصب العلميـة : بين تدريـس فى المدارس الأميرية وتحريـر فى صحيفـة

الوقـائع المصرية ، وكتابـة فى الدوائر الرسميـة حتى قامت ثـورة الزعيم أحمد عرابى ضد الخديوى توفيق .

وفى بداية الثـورة كان لمحمد عبده الذى اشترك فيهـا اشتراكا فعليا آراء بناءة فقد قصر بعض مقالاته على الـدعوة إلى إصلاح التعليم ، ومنح الفرصة لجموع الشعب ، وطالب عرابى بالتركيز على التربية والتعليم قبل التركيز على الثورة ، وقـد بدأ محمدعبـده مع ثورة عرابى ثـورته الإصلاحيـة العظيمة التى تركـزت حول الدعـوة إلى تحرير الفكر الإسـلامى والعربى من قيود التقـاليد ومنهم الـدين على طـريق سلف الأمـة ، واعتبـاره من ضمن مـوازين العقل البشرى ، وتمييز النـاس وبصفة خاصـة المحكومين بين ما للحكـومة من حق الطاعة على الشعب .. وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

وجهر محمد عبده بدعوته الإصلاحية ، ولم يخش بطش الاستبداد ، الذى كان فى عنفـوانه ، وقمة جبروتـه وظلمه ، كما هاجم مشـايخ الأزهر ، وحملهم مسئـولية تـراجع الدين الحنيف ، وانتشـار الأفكار الهدامـة ، والمتطرفـة التى تبتعد عـن روح الدين الحنيف ، وكما حمل لـواء الإصلاح السياسـى حمل لواء الإصلاح الدينى .

وعندما إحتل الإنجليز مصر ، أدركوا أن محمد عبده قائد ثورى ، وليس مجرد مصلح دينى وسياسى ، وعندما أفتى الإمـام الشيخ بعزل الخديوى وطرد المحتل الإنجليزى الغاصب من مصر ، ألقى القبض عليـه ، وتم نفيه خارج البـلاد ، فذهب إلى سـوريا ثم إلى بـاريس ليلتقى من جـديد بأستـاذه جمال الـدين الأفغـانى ، وفى بـاريس ، أنشأ الأفغانـى وتلميذه النجيب العـلامـة والنابغـة محمد عبـده جريـدة « العروة الـوثقى » وعهـد إلى التلميذ بتحـرير الصحيفـة الذى كـان لسان حـال المصلحين والثوريين والمدافع عن الـوطن

العـربى المحتل ، وحقوق أبنـائه وفى بـاريس أيضـا ، اطلع محمد عبـده على التمدن والتحدث ، وتعلم الفرنسية وقرأ المزيد عن الفلسفة والقانون .

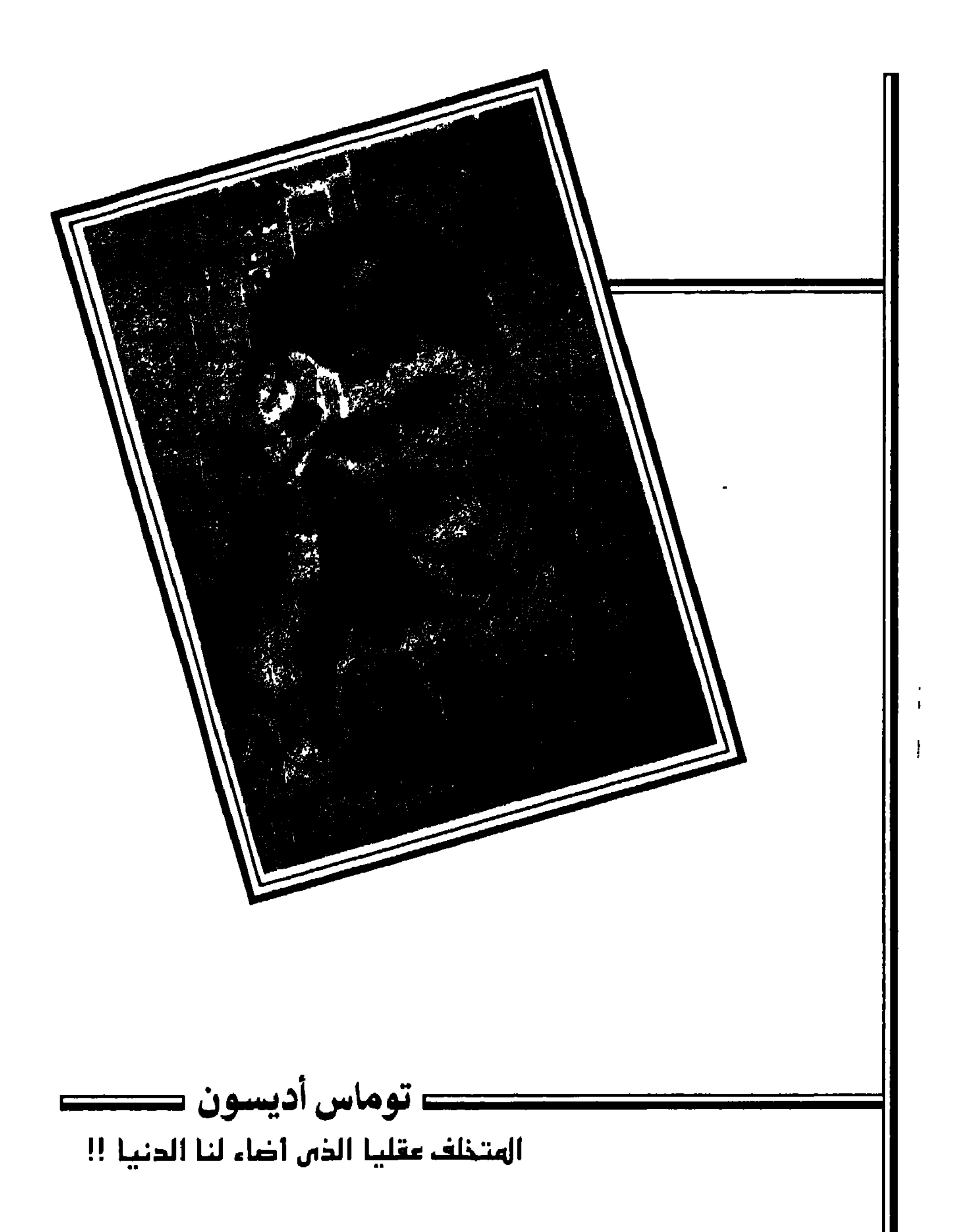
وما أن عاد محمد عبده إلى مصر بعد صدور العفو عنه ، عهد إليه بتولى القضاء ، فَعُيّن مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وعضوا فى مجلس إدارة الأزهر ثم « مفتى عام للـديار المصريـة » ، وكانت فتواه نـارا حارقـة ضد الاستعمار والقصر ، وظل بـا لمنصـب حتى لقى ربـه فى الحادى عشر من يـوليـو عـام ١٩٠٥ متأثرا بخيبة أملـه فى إصلاح الأزهر ، والمقاومـة العنيفة التى واجهها من جانب الخديـوى والإنجليز والمشايخ غير الشرفـاء لدعوته الإصـلاحية ، وكتب أبيات شعر قبيل وفاته مباشرة تعبر عن هذا قال فيها :

ولست أُبـالى أن يُقـال محمـد
أبلى أم اكتظت عليـه المآثـم
ولكنـه دين أردت إصـلاحـه
أحـاذر أن تقضـى عليـه العمائم

وهكـذا رحل الإمام محمـد عبـده ابن الفلاح الفقير الـذى أصبح زعيما للنهضة الإصلاحية الجميلة التى لا تزهق أرواحا ، ولا ترق دماءً ، نهضة مبنية على الفكـر ، والهِدايَّـة ، والاستنارة ، وإصـلاح التعليم ، وتنقيـة الـدين من شوائبه التى دخلت عليه ، لقد حاول محمد عبده التوفيق بين الإسلام والمدنية الحاضرة بالتحرر من القيود السخيفـة ، والفكر المتخلف ، والتطرف الدينى ، والتعنت الفكرى الذى يصد أبواب الاجتهاد .

□○□○□





توماس أديسون

المتخلف عقليا الذى أضاء لنا الدنيا !!

لم يمض على دخول الصغير تـوماس المدرسة ثلاثـة شهور فقط ، حتى قرر الناظر ، والمدرسون طرده وعدم السماح له ثـانية بالدخول ، أما حيثيات مثل هذا الحكم الشديـد القسوة ؛ فقد كان على حـد تعبير الناظر .. « الطفل بليد ، ومتخلف عقليا » !!

وبعد أن كـان أمام الصغير فـرصة للتعلـم والتسلح بها يـواجه بـه مرارة الحاجة ، وشر السؤال - فيما بعد - عنـدما يكبر تلاشى الأمل ، وأصبح عليه أن يصارع الحيـاة فى سنه المبكـرة ، لا سيما وأن أسرته فقيرة بـالكاد تجد قـوته يومهـــا ! .

هكذا كان حال تـوماس أديسون الفاشـــل الذى أضـــاء لنـــا الدنيا ، ولا يدرى سـوى الله ماذا عسانا أن نفعل لـو لم يكن لدينا المصبـاح الكهربى الذى اخترعه من بين ألف اختراع سجلهم باسمه .

ورغم البداية المفجعة التى كان يمكن أن تقضى على الصغير فى مهده ، وتدفعه إلى طى النسيـان ، إلا أنه لم يأبه بما حدث ؛ بل إنـه لم ينزعج للعقاب الجسمانى والنفسى المؤلم الـذى تعـرض لـه من جـانب والـديـه . لقـد كـان لتوماس رباطة جأش رجل بالغ ، وقلب أسد ، وعقلية عبقرى .

ويبدو أن هناك عـلاقة متبادلة بين العبقرية والجنـون ، هذا هو التفسير الـوحيد لقـرار فصل هـذا العبقرى لاتهامـه بـالتخلف العقلى . فـالعبقريـة كالجنون هى خـروج عن المألوف ، ولحظة الخلق والإبداع هـى لحظة انفصال عن الواقع والتحليق فى عالم خاص له حسـابات لا يعرفه إلا يمارس العبقرية والخلق والإبداع .

ويقول أديسون فى مذكراته : إنه كان يكره المدرسة لأن المدرسين يلقنون التلاميذ العلوم تلقينا ولا يسمحون لهم حتى برواية المعلومات على طريقتهم .. إنهم يحرمونهم من أبسط حقوقهم المشروعة فى إختفاء نوع من الذاتية أو الخصوصية على ما يخرجونه من جعبتهم .

ويقول : إن الشكاوى الكثيرة من عدم تركيزه وانشغاله عما يقوله مدرسوه ، كان يقابله دائما .. «علقة ساخنة » فى البيت حتى إنه كره المدرسة والبيت معا .

وبعد ما ترك أديسون الدراسة ، عمل بأكثر من مكان ، فتارة هو صبى ميكانيكى ، وتارة لدى نجار ، وما أن شب وكبر ، وبلغ الثانية عشرة حتى بدأ يعمل على خط قطار يربط بين المقاطعات التى تقع شمال وجنوب مدينة ميلانو بولاية أوهايو التى ولد ونما فيها .

وحاول أديسون الاستفادة من مواهبه ، وأخذ يفكر كيف يبتكر ، وكيف يخترع ، وفى القطار كان يصدر صحيفة ويطبعها فيه ، ويتلقى أخباره عند الوقوف بكل محطة ، ثم أنشأ معملا بالقطار ضمن أجهزه ومعدات ومواد كيميائيه وذات مرة كاد يتسبب فى حريق هائل بالقطار .

وما أن خطا أديسون عامه الحادى والعشرين حتى ابتدع جهازا كهربائيا لتسجيل الأصوات فى الانتخابات ، ولكن لم يجد إقبالا على شرائه ، وكان فى أمس الحاجة إلى أموال كثيرة حتى يمول اختراعاته التى كانت تتطلب المواد الخام والمعدات ، وغيرها ، ناهيك عن تدبير ما يقيه الجوع والبرد القارس .

ولأن أديسون حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، عظيم الفكر ، فقد اهتدى إلى قرار مؤداه أن البداية لابد أن تكون من خلال اختراع شىء لا يجد الناس مفرا من شرائه ، وبمبلغ كبير يؤدى الغرض .

وبالفعل تمكن المخترع الصغير من ابتكار جهاز رائع لصرف تذاكر القطارات ، وباعه فى عام ١٨٦٨ بمبلغ خيالى قدره أربعين ألف دولار ، ومن هنا بدأ نجمه يبزغ ، ويعرفه العالم كأعظم مخترعى عصره .

وإذا كان جهاز صرف تذاكر القطارات الذى طُبِعَ عليه اسم أديسون قد عرفه إلى العالم كله ، فإن اختراعا آخر جعله أكثر شهرة وثراء ، وهو « الفونوغراف » الذى سجله باسمه فى عام ١٨٧٧ .

وما هى سنتان حتى هز أديسون العالم كله بأعظم اختراع عرفته البشرية ، والذى لا نزال جميعا ننعم به ، كما ستنعم به الأجيال التى ستأتى بعدنا .. إنه « المصباح الكهربائى » ، الذى جعله أديسون بنظام توزيع كهربائى اختراعاً يدخل البيوت .

وفى عام ١٨٨٢ ، أسس صاحبنا العبقرى الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره شركة باسمه تولت إنتاج الكهرباء لمدينة نيويورك ، ومنها انتشرت الكهرباء فى أمريكا وباقى أنحاء العالم .

وتزوج أديسون الذى أصبح أغنى وأشهر وأعظم مخترع فى العالم من سيدة من أسرة متوسطة الحال أنجب منها ثلاثة أطفال خلال سنوات قليلة من زواجهما ثم رحلت عنه فجأة دون سابق إنذار ليتوقف فترة عن مواصلة نجاحه ونجاح البشرية .

وتزوج أديسون للمرة الثانية ، وكما كان الحال مع امرأته الأولى أنجب أيضا ثلاثة أطفال وبدأ مع استقراره الثانى يعود إلى تقديم خدماته إلى الإنسانيه المعذبه !

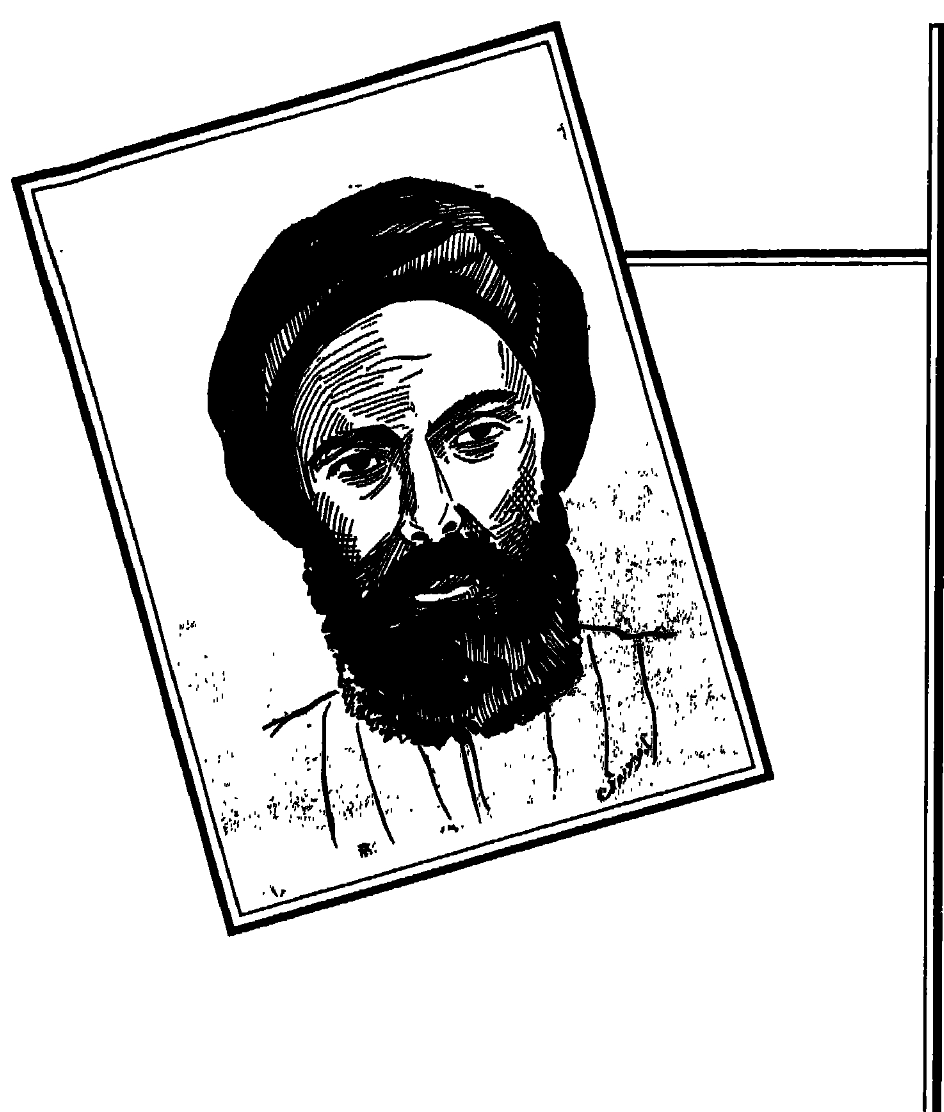
فقـد عمل أديسـون على تطـوير كـاميرات السينما ، وسـاهـم فى عمليـ
اختراع التليفـون ، حيث ابتكر الكـاربون الـذى ينقل الصوت ، وسـاهـم فى
اختراع أجهزة كثيرة كالتلغراف ، والآلة الكاتبـة وهو الذى اخترع البطاريات
الجافة والميكروفونات .

وقد اخترع أديسون أيضا المصابيح الكهربائية بعد ما اكتشف أنه داخل
فراغ يمكن أن تتحرك الكهرباء بين سلكين دون أن يتصلا .

كما وضع أديسون العظيم أسس صنـاعة الإلكترونـات . وأصبح شريك
فى عدد كبير من الشركات الصناعية ، ومن أهمها شركة جنرال اليكتريك .

وهكذا استطاع الولـد الشقى ، والتلميذ الفاشل (المتخلف عقليا) كم
اتهمه مدرسـوه ، أن يضىء لنا الدنيا ، ويسجل اسمـه بين الخالدين فى شتى
مجالات الحياة كأكبر عبقرية عرفها التـاريخ حيث إن العالم يشهد مخترعا قدم
مثل هـذا الكم الهائل من الاختراعـات الـرائعة خـلال سنـوات عمـره التى
امتدت أربعة وثمانية عاما بين ١٨٤٧ - ١٩٣١ .

□○□○□



عبد الله النديم

عامل التلغراف أعظم خطباء عصره

كان سيد المنابر ، وأعظم فرسان الكلمة فى عصره . كان إذا تحدث أضرم ناراً ، وأشعل ثورة ، وكانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح الذى لا ينقطع ، والجهاد الذى لا يتوقف ، والروح الوطنية المتأججة ، التى لا تعرف اللين ، أو الاستسلام .

هكذا كان عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ولسانها الناطق ، الذى لم يكن هو نفسه سوى ثورة مضطرمة دائمة ، حتى عندما هدأت الثورة ، وسكن الثوار ، واستسلموا للأمر الواقع ، رفض الخضوع والاذعان ، ومضى فى ثورته يحث الناس على مقاومة الظلم ، ويحرضهم على قتال الظالم .

ولم يكن عبد الله النديم مجرد خطيب وسياسى ، وإنما كان أديبا عظيما يملك ناصية البيان ، يقرض الشعر ، فيبدع فى نظمه ، ويخط النثر فيبرع فى كتابته ، وقد كان بحق علماً من أعلام السياسة والأدب فى عصره وفى كل العصور .

وقد كان للنديم معركة أخرى فى طفولته وصدر شبابه ، حيث كان عليه أن يبدأ من تحت الصفر حتى يبلغ ما وصل إليه من مجد وشهرة ومكانة بارزة فى تاريخنا .

فقد وُلِدَ النديم فى أسرة فقيرة بالكاد تشق طريقها فى مجتمع لا يرحم الفقراء ، ولا يحترم سوى كان يملك سلطان الأهل أو المال . كان أبوه واسمه « مصباح إبراهيم الإدريسى » نجاراً بدار صناعة السفن فى مدينة « الإسكندرية » التى نزح إليها فى شبابه من « الشرقية »

مسـقط رأسه . وبعد فترة من الزمن افتتـح أبوه مخبزا صغيرا كفل له الكفاف من العيش .

وعندمـا رُزِقَ الأب بابنه « عبـد الله » توسم فيه الكثير ، وتمنى لـه ، ما لم تسمح له بـه الظروف ، فقـد كان يريـد لابنه مستقبلا أفضـل مما كـان عليه الحـال معـه .

وقد سـاعد الأب على ذلـك ما أظهره الطفـل فى أيامـه الأولى « بكُتَّاب الحى » من نبــوغ ، وحب للعلم ، والتحصيل ، ومقــدرة على حفظ القــرآن الكريم كله قبل بلوغه التاسعة من عمره .

ولأن عبد الله النـديم كان صبيا واعـداً يبشر بالكثير ، فقد أدخلـه والده معهـد « الجامع الأنـور » الذى أنشأه الشيخ إبـراهيم بـاشـا بـالإسكندريـة لدراسة علوم الدين واللغة على غرار ما يجرى بالأزهر الشريف .

وبعد سنوات من العلـم والتحصيل على أيـدى كبار المشايخ والعلماء ، أحس النديم بأنه حصل من المعارف والعلوم ما يكفيه ، وأن المعهد لن يقدم له المزيد ، وشعر بالضيق لجفـاف الدراسة ، فهرب من المعهد ، وذهـب يتردد على مجالس الأدب والأدباء .

ومن هنـا أخذت مـواهب النديم ، وقـدرته الفـائقة على نظم الشعـر ، وإلقـائه تظهر جليـة واضحـة ، وذاع صيتـه ، وأصبح أحـد نجـوم الساحـة الأدبيـة ، يجالس عمالقة الأدب ، وينـادم الكبراء ، وينطلق لسـانـه بالشعـر والزجل والنوادر والفكاهات .

وأخذ النديم يتجول بين أرجاء البلاد حيـث قضى قرابة عام ينزل ضيفاً على العمد والأعيان الـذين كانوا يحتفون به لما لـديه من أدب وشعر وقصص

وأحاديث جـذابة مسليـة ، وعاد النديم من رحـلاته وهـو يحمل هذا اللقب الذى أضيف إلى « عبد الله » بقية حياته .

وعندما عاد صاحبنا إلى الإسكنـدرية ولم يكن قد بلغ الثامنة عشر بعد ، تعلم منه فن إرسال الإشارات التلغرافية ليلتحق بعد ذلك بمكتب التلغراف المحلى ، ثم مكتب تلغراف القصر العـالى حيث كانت تقيم والـدة الخديوى إسماعيل .

وما أن استقر النـديم بالقاهرة ، أخـذ يستأنف تردده على مجالس الأدب والأدباء ، كما بدأ يحضر دروساً لكبار العلماء فى الأزهر .

وفى هـذه المجالس تعـرف النـديم على محمود سـامى البـارودى شاعـر السيف والقلم ، وعندما وصل جمال الدين الأفغانى إلى مصر فى ذلك الوقت لينشد آراءه الثورية لتحرير الأمـة الإسلامية من العبودية والاستعمار ، اتصل به النديم وأصبح من أبرز تلامذته .

وقد كان لتعـاليم الأفغانى وآرائه أثراً بالغاً فى توجيـه النديم إلى الثورة ، خاصة وأن النـــديم كان يرى مدى الظـلم والذل والهـــوان الذى يتعرض له الشعب .

وقدألهب أيضا حماسه إحساسه هو نفسـه بالظـــلم عندما غضب عليه « خليل أغـا » كبير أغـوات القصر العالى ، وصـاحب النفـوذ الكبير ، فأمـر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر شر طردة .

وترك النديـم القاهرة ، وسار إلى المنصورة ليفتح دكـاناً لبيع الخردوات ؛ ولكنه أفلس وأغلقـه ، بعد ما تـركه وانغمس فى مجالس العلم والأدب ، واتجه النديم إلى طنطا ثم عاد إلى القاهرة من جديد .

وعقب عودته ، انضم مرة ثانية إلى مجلس الأفغانى ولكن كأحد أبرز التلاميذ الذين قرر الأفغانى إعداده لدور قيادى سيغير مجرى حياته .

فقد جعل الأفغانى تلميذه النديم - لما يتمتع به من مواهب وقدرات فذة - رسول دعوته بالإسكندرية للتحرير من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاحتلال الأجنبى .

وهكذا سارع النديم إلى الإسكندرية يحاول تكوين رأى عام مستنير ، وتنظيم المقاومة الشعبية ، وتحرير الصحف التى تعبر عن جماعة الأفغانى أو المحفل الماسونى الذى أسسه المصلح الكبير .

وما أن حط النديم رحاله بعروس البحر المتوسط حتى بدأ رحلة كفاحه السياسى والثورى الطويلة ؛ وتحول من نديم للكبراء والعمد والأعيان بمجالس الأدب إلى زعيم ثورى ظل يقاتل ويحارب ويناضل حتى الموت .

فقد انضم النديم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، وأخذ ينشر المقالات التى تدعو للثورة على الخديوى والاستعمار ، وأخذ يحرر أسلوبه من المحسنات المتكلفة وسائر ألوان البديع ، واتبع إسلوبا أقرب إلى العامة فى مجال دعوته إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى .

وظهر حب النديم للخطابة ، والتف حوله الناس فى كل مكان ، وأصبح أشهر خطباء عصره ، وقد كون مدرسة علم بها النشىء فن الخطابة وكيفية اتخاذها وسيلة لتثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومى ، وكانت هذه المدرسة جزءًا من « الجمعية الخيرية الإسلامية » التى أسسها النديم لإيجاد حركة تعليم لا تسير على نهجه المدارس الحكومية .

وأخـذت الصحف تنشر خطب النديم فى كل مكـان كاملـة ، وانهالت عليه الألقـاب « خطيب الشرق » ، وعلى جماعته « سـوق عكاظ » ، وعنـدما جاء الخديـوى توفيق كان النديم قـد مد نشاط الجمعية فأصبحت لها فـروعاً كثيراً فى المدن الكبرى ، وانضم إليها مئات الآلاف .

أنشأ النـديم مجلـة باسم « التنكيت والتبكيت » وكـان يتخطفهـا رجل الشارع لكونها مرآة تعبر عن واقع حـاله ، وتهاجم طبائع الاستبداد ومساوىء الاحتلال بإسلوب رائع وسهل يجمع بين النكته والقصة .

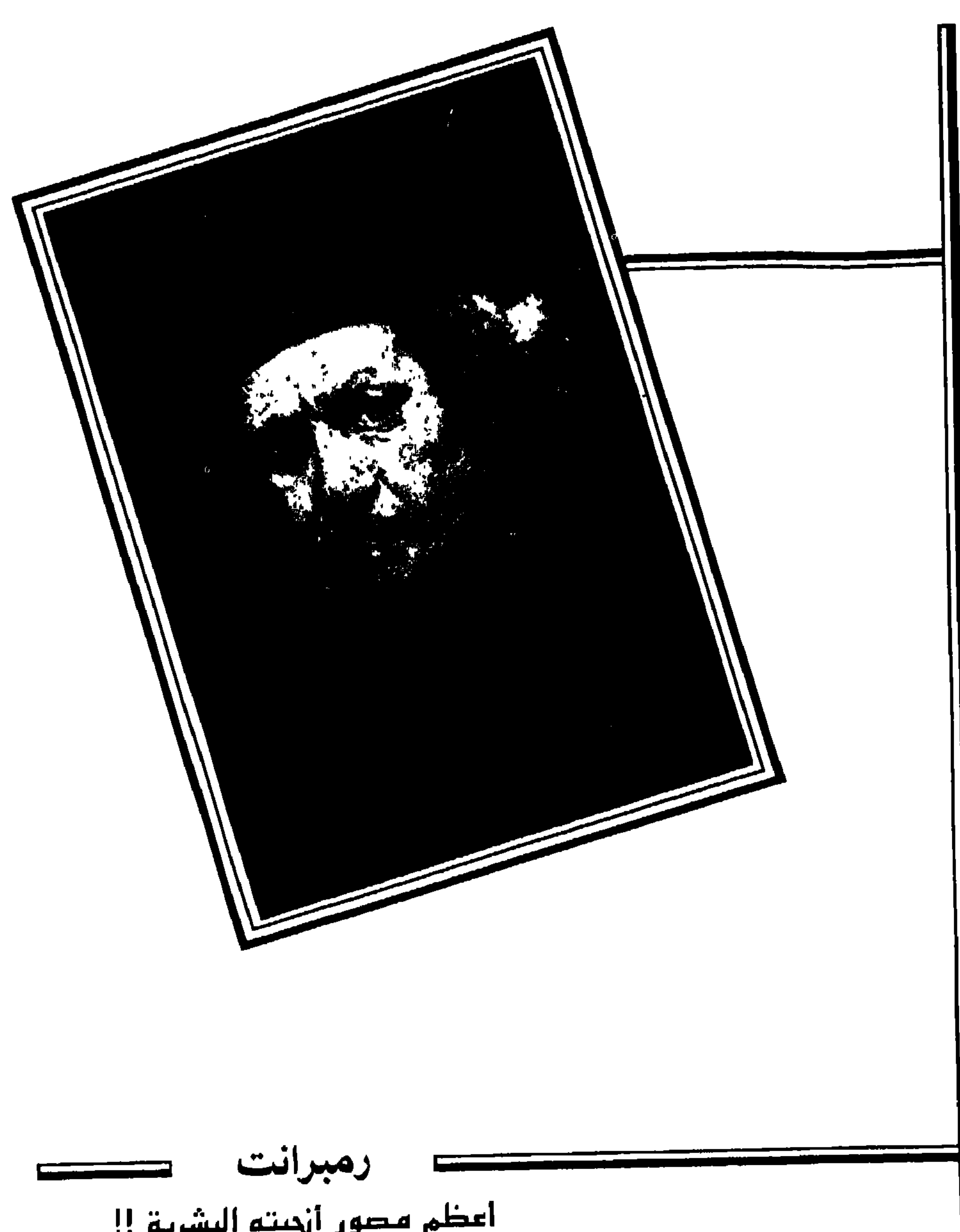
وقد حدث أن كان أحمد عرابى يمهد مع زملائه للثورة العرابية فوجد فى النـديم خير متحدث بـاسمها ، وأعظم خطيب لها ، يجمع الشعب حـولها ، وقد كان كذلك وانضم النديم إلى جيـش عرابى ، وكان المدنى الوحيد وسط صفوف العسكريين .

وقد ظل النـديم بجانب عـرابى خلال حـربه ضـد القوات البريطـانية حتى وضعت الحرب أوزارها ؛ ورغم هـزيمة عـرابى إلا أن النديم ظل يُلهب حماس الشعب ، ويشعل ثورته ضد قوى الظلم والطغيان حتى أُلقىَّ القبض عليه فى شهر أكتوبر عام ١٨٩١ ونفى إلى « يافا » .

وبعـد عـام واحد عـاد النـديم وأصـدر مجلة « الأستـاذ » وأخـذ يهاجم الإنجليز حتى أصدروا أمراً بنفيه إلى « يافـا» مرة أخرى ثم الأستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعينه فى وظيفة كبيرة بالباب العالى .

وما هى أربعـة أعوام حتى أصيب النـديم بالسل ومـات فى العاشر من أكتوبـر عام ١٨٩٦ عن عمـر يناهـز الرابعـة والخمسين تاركـا سيرة عظيمة لخطيب ومناضل عظيم .

□○□○□



رمبرانت

أعظم مصور أنجبته البشرية !!

هو عبقرى بكل معنى الكلمة .. ورغم مـرور أكثر من ثلاثة قرون على رحيله إلا أن فنـه العظيم ، وتراثه الخالد جعـل اسمه يتوهج ، ويزداد لمعـانا كلما مرت عليه الأيام ، وإذا كان هــذا الملهم المبـدع « معجـزة زمـانه » ، و « عبقـرى عصره » - على حد تعبير معـاصريه ، وإذا كـان هذا العمــلاق الفذ « المصـور الأعظم » كما يصفه نقـاد اليوم فـإن ما خلفه مـن تحف رائعة جعلت منه أسطورة فى عالم الفن والجمال .

هذا هـو الرسام الهولنـدى الفذ رمبرانت أعظم مصور أنجبـه التاريخ ، وأكثر رسامى العالم من حيث غلو ثمن لوحاته .

ولكن هذا الهرم الشامخ له قصة غريبة فى غاية الغرابة فقد كان عليه أن يتجـرع شتى كئـوس الصبر ، ويتحمل كـل صـور الأسى ، والألم حتى يحفـر بريشته اسمه بين عباقرة عصره الذين تفوق عليهم فيما بعد .

وإذا كان رمبرانت قد بدأ حياته معدما ، فقد أنهاها أيضا معدما ، ورغم تعاظم ثمن لوحـاته ، وخاصة بعد وفاته ، إلا أن صـاحب كل هذا الإبداع ، وكل هذه العبقرية ، ذاق الأمرين حتى يجد قوت يومه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحـد فقـد عـاش رمبرانت آخر أيامه مفلســا لا يملك مليما واحـدا ، يطـارده الـدائنون ، وتستـوقفـه لعنـاتهم لعجـزه عن الســداد .

ولكن مـا هى قصـة كفـاح هـذا الفنـان الـذى تـدفع عشرات الملايين للوحاته اليوم عن طيب خاطر ، وبلهفة ما بعدها لهفة .. كيف حول صاحبنا

الهزيمة إلى نصر ، لم يقبض فى حياته ثمنه .. وكيف ترك للبشرية تراثا فنيا خالدا من عصارة فكره ، وخصب خياله ؟!

بداية رمبرانت بداية تعسة ليس فيها ما يعين على النبوغ أو يدفع إلى الاتجاه إلى الفن ، فقد ولد هذا الرسام فى أسرة فقيرة بالكاد تسد رمقها فى عالم لا يعرف الرحمة ، ولا يعرف الوسطية ، فالناس إما غنى شديد الثراء ، أو فقير شديد البؤس والشقاء .

ولد رمبرانت بمدينة « لايدن » فى الخامس عشر من يوليو عام ١٦٠٦ ، وكان أبوه خبازا ، كما كانت أمه أيضا ابنة خباز ، فى بيت متواضع نشأ الطفل وسط سبعة إخوة هو أصغرهم جميعا .

ووسط جو تخيم عليه الكآبة والإحساس بالظلم وعدم المساواة ، وأمام هذا التمييز الصارخ بين قسمى المجتمع فى هولندا ، الغنى ، والفقير اكتشف رمبرانت أن عليه أن يسير على نهج بقية إخوته ، ويعمل لدى أى تاجر بأيه وظيفة ، ليجد ما يسد به رمقه ، ويستر به جسده الذى كان يقتله الصقيع عندما تشتد قسوة فصل الشتاء المرعب فى بلاده .

ولكن روح الفنان الكامنة فيه أخذت تدفعه إلى طريق آخر . طريق تجد فيه ما خلقت له ، وجاءت الحياة من أجله ، لقد أصر الصغير على التعليم ، وأمام رغبته ذهب به أبوه إلى المدرسة الابتدائية ليبقى فيها عدة سنوات .

وفى هذه المدرسة لم يجد الصغير وقتا كافيا لممارسة هوايته التى بدأت تتفتح لتوها ، وتعلن عن نفسها ، فقد ضاق ذرعا بمواد دراسية لاحصر لها ، وكان التعليم يعتمد على شحذ الذاكرة ، والقدرة على تخزين أكبر كم من المعلومات ، وعجز رمبرانت عن متابعة دروسه ، وكان يُضرَبْ عادةً على

أيدى مدرسيه بسبب انشغاله عن الدرس بالرسم . مدرس واحد فقط كان سعيدا بالصغير هو مدرس الرسم .

وبعد أن أبدى الغلام استياءه من المدرسة ، وأبلغ والده بعدم رغبته فى إكمال تعليمه عمل مع أخوته أعمالا مختلفة لبعض الوقت قبل أن يبدأ تعلم اللاتينية ولكنه لم يفلح أيضا ، ولم يبدِ أى استعداد يُذكر .

وضاق والده به ذرعا ، وأخذ يعنفه ، ويطالبه بترك تلك الهواية « اللعينة » التى تذهب بوقته ، وتفسد عليه دراسته ، وتحول دون عمله كسائر أخوته للحصول على لقمته وسترته .

وبعد مشقة ، استطاع رمبرانت إقناع والده بإلحاقه بمرسم أحد الفنانين وكان يُدعى « فان سوانبرج » فتتلمذ على يديه لمدة ثلاث سنوات ، وذكر رمبرانت - فيما بعد - أنه كانت لهذا الفنان قدرة عجيبة على أن يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن التخلى عن ريشته هو بمثابة الانتحار بعينه ، وأن الفن هو تصوير الحياة بحسنها وقبحها ، بصدقها ، وكذبها ، بحلوها ومرها .

وقد استطاع رمبرانت خلال سنوات عمله مع سوانبرج أن يتعلم كيف يستثمر فنه فى الحصول على قوته ، وكيف يحصل على المال أيضا لتطوير مهاراته ، وتحسين أدواته ، والإنفاق على استيعاب الدروس الفنية التى يمكن أن تصقل موهبته ، وتجعل من ريشته أداة تعبيرية على مستوى عالٍ من الروعة والجمال والقدرة .

وما أن جمع رمبرانت بعض المال من بيع بعض لوحات له ما هى إلا بدايات أولى ، أو تجارب لم تكتمل ، سافر صاحبنا إلى « أمستردام » ليقدم نفسه إلى الفنان « بيتر لاستمان » الذى كان من أبرز فنانى هولندا وأوربا فى تلك الحقبة .

وفى كنف هـذا الفنـــان الكبير تعلم رمبرانت الكثير وأظهـر أيضـــا من مواهبـه الكثير حتى إن أصدقاء لاستمان والمقـربين إليه أخذوا يتحـدثون عن الرسام الصاعد بقوة الصاروخ .

وبمجـرد أن أحس رمبرانت بأنه أدى واجبـه بإخـلاص تجاه فنه ، وأنـه امتلك القدرة على تطـويع موهبتة وريشتـه لأفكاره الذاتيـة التى كانت تعبر عن إتجاه جـديد فى فن التصـوير ، اكتفى بهذا القـدر من العلم والدراسـة ، واكتساب المهارات ، وعاد إلى مدينة « لايدن » .

ولم ينتظر رمبرانت طـويلا حتى افتتح مرسمـه الخاص ومنذ ذلك الحين بدأ رمبرانت فى التألق ، وأخذت شهرته تزيد يوما بعد يوم .

وكـان اهتمام رمبرانت الرئيسى منصبـا على الصـور الشخصية مستغـلا براعتـه اللا محدودة بـانتزاع أدق ملامح وتعبيرات الـوجه ، وتأكيـد شخصية صـاحبه ، ولم يترك رمبرانـت أحدا من أسرتـه ، أو أقـربـائه ، أو أصدقـائه ، ومعارفـه إلا ورسم صورة لـه ، ويكفى أنه رسم نفسـه عشرات المرات ، حتى إننا إذا مـا قمنا بترتيب هذه الـرسوم أو تلك اللوحـات سنجد لدينـا شريطا مسلسلا لحياة رمبرانت فى مراحلها المختلفة .

وما أن عـرف مجتمع النبلاء ، والأثرياء قـدرات هذا الرسـام الفـذ حتى انهالت عليه طلبـات رسم لوحـات شخصية لهم مـدفوعـة الثمن ، ولما كان صاحبنا فقيرا ، يريد فقط أن يضمن حصوله على لقمة العيش ، والحد الأدنى لنفقات المعيشـة ، فقد قبل المهمة ، وربما وجـد فيها فرصـة لكى يحل على ما يستحق من مكانة وشهرة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

ويبدو أن لـوحات رمبرانت الأولى كـانت ثورة فى فن الـرسم فى بلاده ، حتى إن جميع النبـلاء أخذوا يستميتـون لكى يـرسـم لهم هذا المصـور العظيم صـورهم الزيتيـة حتى يزينـوا بها جـدران قصورهم ، أو منـازلهم ، وفى ذلك الـوسط البرجوازى وجـد رمبرانت فى البدايـة أن تصويـر الأشخاص مهمـة مريحة ؛ ولكنها لا ترقى إلى طموحه الفنى ومواهبه الفذة .

ومـا أن وقع اختيـار صاحبنـا على العـاصمـة « امستردام » لتكون مقـرا لمرسمه وحياتـه الفنية حتى بدأ يزاول هـوايته الحقيقية ، ويرسم مـا يشعر أنه إضـافـة جـديـدة لهذا الفن التشكيلى العظيـم ، وكـان من أعظم مـا رسمـه رمبرانت هناك لـوحته الشهيرة الت تحمل اسم « محاضرة فى التشريح » والتى ظهرت فيها قدرته غير العاديـة على إبراز ملامح ، وتعبيرات الوجوه المختلفة لمجموعة من الأطبـاء يحيطون بجثة راقدة فوق المشرحـة ، وكيف خلق الرسام الكبير انسجاما وتنـاغما من الرءوس التى تعلو الياقـات البيضاء المنبثقة من ظلام خلفية اللوحة القاتمة !

ولكن نجـاح رمبرانت الساحق لم يستطع أن يمـلأ الفراغ القاتـل الذى كان يحيل حياتـه إلى فوضى وعـدم استقـرار ، وإحســاس قاتل بالوحـدة ، وفى عـام ١٦٣٣ تـزوج رمــبرانت مــن ابنـة أحـد تجار التحف فى امستردام تـدعى « ساسكيـا » وكـانت على جانـب كبير من الجـمال والفتنـة والحسن والثراء أيضـا .

وقد كان لزواج الرسام الشهير أثـر عظيم فى لوحاته التى انعكس عليه ، وظهر فيها بجـلاء جو المرح والبهجة والسعادة التى خلقتها امرأتـه الرائعة ، وهناك لوحة شهيرة رسمهـا رمبرانت بعد زواجه تجمع بينهما هى دليل صادق على هذا التحول فى ريشة هذا العبقرى .

ويبدو أن السعادة لم يُكتب لها أن تدم طويلا فى حياة رمبرانت الذى ذاق الأمرين حتى يُكوّن عشه الهادىء ، وبيته الجميل الذى كان يجمع فيه كل ما تقع يده عليه من لوحات ، وتحف وأبليكات .

فقد هاجمت الأمراض زوجته الملهمة عقب ولادة ابنه « تيتوس » ، ولم تمكث « ساسكيا » فى فراشها طويلا ، حيث عاجلتها المنية لتترك الفنان الكبير ووليدها الصغير فى جو مفعم بالأسى والحزن والألم يكابدان مشقة الحياة دون حنان الزوجة ، وعطف الأم .

وإذا كنا نريد أن نؤرخ للفصل الأخير من حياة رمبرانت .. أو بداية النهاية ، فيمكن أن نجعلها تبدأ منذ اللحظة التى فقد فيها حليلته وملهمته وأم ابنه . حيث إن جميع المربيات لم يفلحن فى تعويض الصغير عن رحيل أمه .

ومما زاد الطين بلة أن إحدى المربيات استماتت لكى تدفع سيدها الرسام المشهور للزواج منها ، ولما فشلت فى إثارة سيدها ، الذى تعامل معها بفظاظة وغلظة ، تقدمت هذه المربية وكانت تدعى « جيرتغ » بدعوى أمام المحكمة تتهم فيها رمبرانت كذبا بمحاولة اغتصابها ، بعد أن وعدها بالزواج ، ثم أخلف وعده ، وتبرأ المحكمة ساحته ، وتخرج المربية من البيت إلى الأبد .

وعندما وجد صاحبنا مدى عطف وحنان المربية « هندريك » على ابنه حتى فكر فى الزواج منها ، ولكن زوجته « ساكسيا » كانت قد أوصت قبل وفاتها بكل ثروتها إلى رمبرانت شريطة ألا يتزوج من بعدها ، وإن فعل تؤول كل ثروتها إلى ابنها تيتوس .

ويضطـر رمبرانت إلى التخلى عن فكـرة الـزواج بعـد أن عـرف الجميع العلاقـة الوطيدة التى تجمع بينـه وبين المربية ، الأمر الذى تنـاقلته الصحف وجعلت منـه فضيحة هـزت كيان صـاحبنـا ، ومع ذلك استمرت هنـدريك با لمنزل ؛ لأن علاقتها بالأب ، والابن تفوق ما يتصوره المرء من قوة ، ومتانة .

ولكن حدث أن اثقلت الديون كاهل رمبرانـت وأصبح ما لديه من بقية ميراث زوجته على وشك الضياع أيضا فـاتفق ابنه مع المربية على الحجر على أبيه ليكون شركة تقوم بتسديد ديون ابيه ، وتصلح من أوضاع الأسرة المالية .

ورغـم ضيق وتبرم رمبرانت بهذا التصرف فى البـدايـة إلا أنـه وجـده فى النهاية حلا رائعا يتيح له التفرغ للرسم والإبداع .

وما هى أعوام قليلة حتى يختطـف الموت المربية هندريك ويسود البيت الظلام ، والوحدة ، ويتلقى رمبرانت صفعـة أخرى أقوى وأعنف زلزلت كل كيانـه ، فما أن تزوج ابنـه من ابنة أحـد الصاغـة ، حتى اختطفه الموت تـاركا للفنان الكبير حفيدا جاء إلى الدنيا بعد وفاة أبيه .

وبدأت مسحة من الحزن تظهر على ريشة رمبرانـت وتسوء أحواله المالية من جـديد ، ويهاجمه الفلس والعـوز والحاجة ، ويـرفض الرجل أن يبيع فنـه وعـاش آخـر أيامـه فى مأسـاة حيث اجتمع عليـه الفقـر والمرض ، رغم بيع لوحاته فيما بعد بملايين الدولارات .

ولفظ رمبرانت أنفاسـه الأخيرة فى الرابع من شهر أكتوبـر عام ١٦٦٩ ، لتنتهى حيـاة أعظم مصور أنجبـه التـاريخ استطـاع ترويض النـور ، والظل ليصنع منهما ملاحم تصويرية لم يسبقه أحد إليها .

□○□○□





كونفوشيوس

فلسفة أم مذهب أم نظام حياة ؟!

عندما مات أبوه لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره بعد ، وما أن شب عن الطوق حتى اكتشف أن عليه أن يتعايش مع أمرين فى غاية القسوة أو كما يقول الشاعر : أحلاهما مر ، هذين الأمرين هما : الفقر وضآلة الشأن خاصة وأن المجتمع الذى قدر له أن يولد ويكبر فيه لم يكن يعترف إلا بسلطان المال أو جبروت السلطة .

وعلى الرغم من أن الطفل الفقير الذى جاء إلى الدنيا فى عام ٥٥١ قبل الميلاد ورحل عنها بعد اثنين وسبعين عاما لم يجد ما يسد به رمقه ، وبالتالى لم يملك ما يدفعه مقابل تلقيه العلم ، إلا أنه استطاع أن يعتمد على نفسه فى تحصيل المعارف ، واستيعاب العلوم حتى أصبح بلا منازع أحد أعظم المعلمين فى التاريخ كله !

هذا هو الفيلسوف والحكيم الصينى كونفوشيوس الذى يعد المسئول الأول عن صياغة تفكير ، وعقيدة وأخلاق وعادات ، وتقاليد أهل الصين أكبر شعوب العالم من حيث تعداد السكان على مدى أكثر من عشرين قرن من الزمان .

فقد وضع كونفوشيوس مذهبا يضمنه جميع الأفكار الروحية التى تهدى السلوك الاجتماعى والأخلاقى لشعب الصين ، والقادرة على خلق حياة فاضلة كريمة تقدم فرصا متساوية للجميع للعطاء والبذل والبناء .

كما وضع الفيلسوف العظيم فلسفة قوامها الأخلاق وتنقسم قسمين أولهما أخلاق الفرد أو الأخلاق الشخصية وهى التى تنبع من ضمير صاحبها اليقظ ، وعقله المستنير ونفسه التى تنزع للخير دائما ، ثم أخلاق الجماعة أو

الحـكومة التى تخدم الشعب وتكون تطبيقـا لِـمُثُل أخـلاقية أسمى ، وقـال كونفـوشيوس : « إن عماد الدولـة لابد أن يكون « الأخـلاق .. الأخلاق .. ثم الأخــلاق » .

وقد كان كونفو شيوس على قدر كبير من الثقـافة والروحانية بحيث كان يستطيع أن يتغلغل داخل أعماق النفس البشرية ، ويقـرأ ما وراء الحجب من نوازعها ، وغرائزهـا ، ورغباتها ، ومطالبها ، وكما كان الناس يـلاحظون عظمة الشاب الذى لم يتجـاوز الثامنة والثلاثين ، كـان هو أكثر إيمانا بـأن له مهمة أسمى من مجرد موظف حكومى بسيط التى انتهى إليها ، ولـذا قرر ترك عمله بسلك الموظفين ، واستقال .

ولكن كـونفوشيـوس لم يكن ليستقيل بهذه السهـولـة ، فقد فكـر كثيرا ، وكان يتراجع ، بيـد أن هذه المرة كانـت كما كتب فى استقالته احتجـاجا على الظلم الفادح الذى تعـرض له الدوق الشرعى فى مقاطعتـه الذى تم اقصاؤه دون وجه حق .

ولعل هذه الحادثة قد ألهبت حماسه ، ودفعته إلى الاتجاه للتعليم ، فجمع حـوله حشـدا من التـلاميـذ وأخذ يعلمهم كـافـة فنـون الحياة ، وسبل بنـاء شخصية سوية ، ومجتمع فاضل .

وقد ظل كـونفو شيوس يطـوف أرجاء النـاس يعظ الناس ، ويعلمهـم ، ويثقفهـم طيــلة ستة عشرة عاما حتى ذاع صيتـه ، وأصــبح المعــلم الأول فى الصــين وبعد رحلة عناء طويلـة ، عاد كونفو شيوس للعمل بـالحكومة مرة أخــرى .

ولكن الفيلسوف والحكيم لم يعد ذلك الرجل الذى عمل من قبل فى سلك موظفى الحكومة ، لقد عاد هذه المرة معلما ومرشدا وداعيا للتغيير، والدفاع عن حقوق المظلومين والمحرومين ، فأصبح يمثل خطرا على رؤسائه المستبدين ، ومدرائه المرتشين ، فما كان منهم إلا أن يحيكوا له المؤامرات والمكائد والدسائس حتى طُرِد من الحكومة .

ولكن كل ما تعرض له هذا العبقرى الفذ لم يثنيه عما وهب نفسه من أجله ، فقد أبى إلا أن يمضى فى تعليم الناس دون هوادة . إنه نموذج آخر لسقراط الفيلسوف الذى لقى حتفه من أجل نفس هذه الغاية النبيلة .

ترك كونفوشيوس المدينة كلها ، وعاد إلى سيرته الأولى حيث طاف بالبلاد متجولا قرابة ثلاثة عشرة عاما مبشرا وداعيا ومصلحا حتى عاد إلى بلدته الصغيرة الواقعة بولاية « لو » شمالى الصين ، ليبقى فيها سنوات خمس توفى بعدها وكان ذلك فى عام ٤٧٩ قبل الميلاد .

ورحل الرجل ولكنه باق حتى اليوم للدرجة التى ينظر إليه البعض على أنه أحد مؤسسى الديانات الكبرى ، رغم أنه لم يكن فى حقيقة الأمر سوى فيلسوف وحكيم ومعلم استطاع أن يشكل فكر وشخصية شعبه القومية عبر قرون عدة من خلال ما تركه لهم وأثر فى تكوينهم من طريقة فى الحياة ونظام فى التعامل وفق مذهب يعتمد الحب وحسن المعاملة والأمانة والاستقامة والاحترام المتبادل منهجا له . مذهب يفرض على الحاكم أن يكون مؤهلا خلقيا وسلوكيا للحكم ، أى أن شرط استقامة الحاكم وأتباعه قيم ومثل عُليا لازم لكى يتولى الحكم .

كما تضمن مذهب كونفوشيوس معالم الحكومة الشرعية وأهمها أن يؤمن أفرادها بأن وجودهم مرتبط بخدمة الشعب وليس العكس .

وقد تطـرق كونفـو شيوس أيضـا إلى العلاقـات داخل الأسرة الـواحدة فرسـم صورة تفضيلـة لما يجب أن تكون عليه عـلاقة الـرجل بـا لمرأة أو الزوج بزوجتـه وكما فرض على الزوج احترام امـرأته ، وحسن معاشرتها ، ومعـاملتها برفق ولين ، طالبها أيضا بطاعة زوجها ، وحسن معاملته .

وقد تـرك هذا الحكيم العظيم لبـلاده وللإنسـانية تراثـا عظيما من القيم والمثل والأقـوال المأثـورة ويكفى أنـه أول من قـال : « حب لغيرك مـا تحبـه لنفسك » .

ويؤمن الشـعب الصينى حتى يومنا هــذا بفلسفة كونفو شيوس إيما نا لا حد له ، ويشاركه فيها اليابانيـون والكوريون الذين ما أن وصلتهـم أبناؤها فى بدا ياتها الأولى حتى أمنوا بها أيضا .

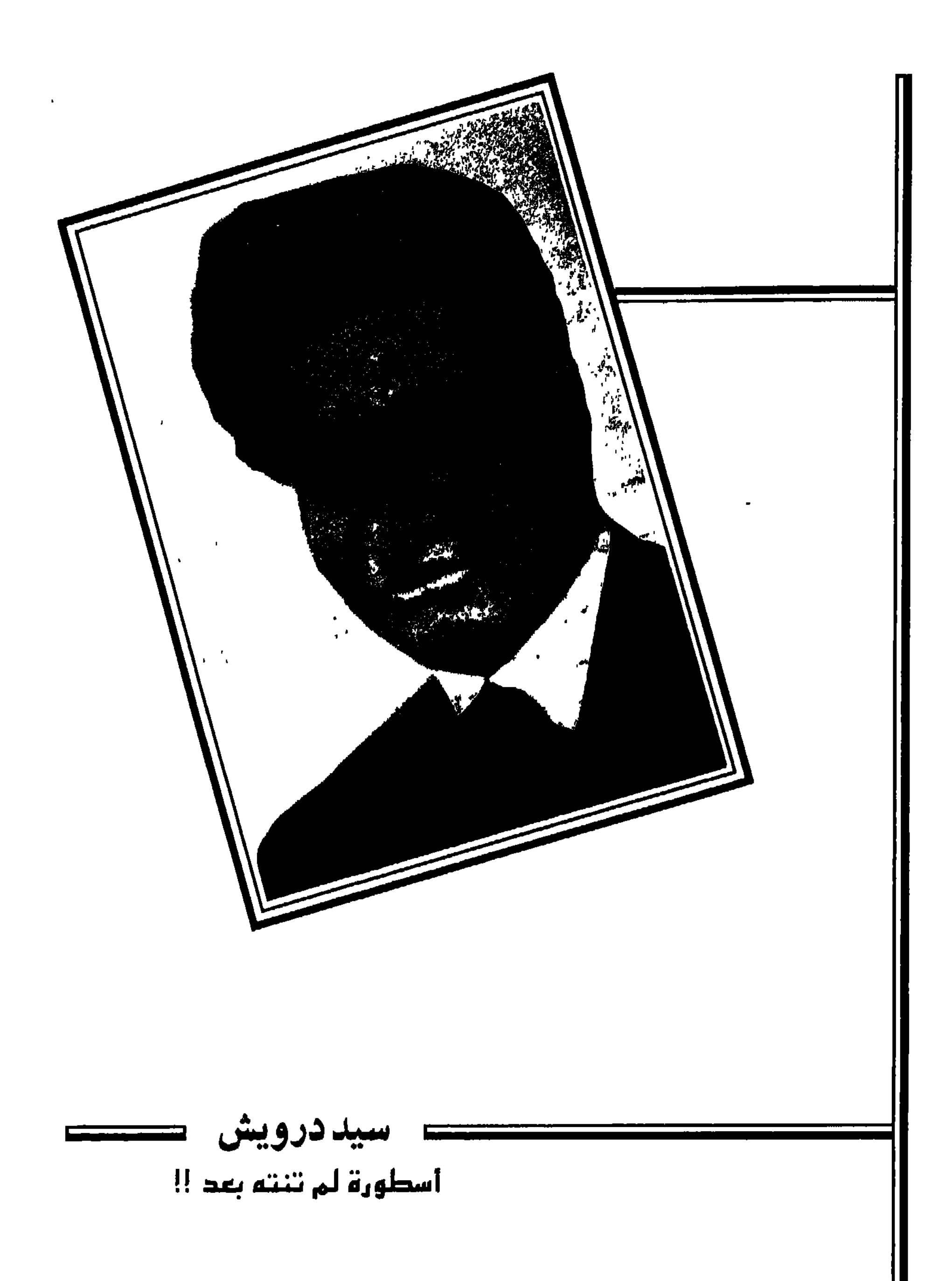
وهكذا رحل كونفـو شيوس تاركاً وراءه شخصية قوميـة متميزة ومتفردة لشعبه هو الذى صاغها بفكره وعقيدته الخاصة ، فكان نعم المعلم .

وربما يكون ختـامنا للحديث عن أحد أعظم المعلمين فى التـاريخ أكثر دقـة ، وإيجازا بسرد ما قـالـه كونفـو شيوس نفسـه عن مـذهبه وأسلــوبه فى التعليم .. يقول : « هل تـريد حقا أن تعرف رأيى فى هـذا العالم ؟ دعنى قبل كل شيء التخلص من العوالم الأخرى ، فمع إننى اعتقد أن ثمة قوى روحية فى الكون لكننى لا استطيع أن أدرك طبيعة ما فوق البشر من الكائنات ، كما إنى أجد هذه الحياة ممتعة بحيث لا أفكر فى الموت أو فيما يلى الموت .

وكل مـا يشغل اهتمامى هـو خلق الإنسـان ، فـالعقل حسن والـذكـاء أحسن ، ولكن الأخـلاق هى التى تجعل من العقل دائما خـادمـا ، وهى التى تجعل الفرد صالحا أو طالحا ، ضعيفا أو قويا .

ولقد حاولت أن أربى الخلق عن طريق التعليم ، فعلمت تلاميذى أربع مواد رئيسية هى : « التاريخ كى يلهموا بالعظيم من أعمال الإنسان ، وكى يجدوا فى دراسة طبيعة البشر ما يكبح جماحهم ، والشعر كى يكونوا ذوى خيال ، والموسيقى كى يتطرق الانسجام والرشاقة إلى نفوسهم ، وحسن الطباع كى يكونوا سادة » .

□○□○□



سيد درويش

أسطورة لم تنته بعد !!

وُلِدَ فى حارة ضيقة تبتعد كثيرا عن المدينة والعمران الذى تعايشه أحياء المدينة الباقية . كان أهل حارته فقراء ، بسطاء ، مطحونين ، كادحين ، يصلون الليل بالنهار حتى يجدوا ما يقيهم مرارة الحاجة ، وذل السؤال . أما هو فلم يكن أكثر منهم حظا ، أو أوفر منهم حالا . هو ابن نجار بسيط شأنه شأن بقية أبناء حارته يشقى معهم ، ويعانى مثلهم .

ورغم الفقر وضيق العيش إلا أن « سيد درويش » فنان الشعب ، ابن النجار البسيط ، استطاع أن يقتحم التاريخ ليخط اسمه فى سجل الخالدين الذين لا تزيدهم الأيام إلا بريقا ولمعانا ، ولا تمر ذكراهم دون أن تعترف لهم شعوبهم بما قدموه من عظيم الأعمال ، التى تمثل مدرسة أو تيارا أو اتجاها أو نقطة تحول فى مسار التاريخ !

عندما وُلِدَ سيد درويش فى السابع عشر من مارس عام ١٨٩٢ بإحدى الحوارى الضيقة فى كوم الدكة ، ذلك الحى الشعبى الضارب بجذوره فى أعماق الإسكندرية القديمة ، اقترحت أمه تسميته « عباس » تيمنا بالخديوى عباس الذى كان قد تولى لتوه الحكم ، رفض أبوه وأصر على تسميته « سيد » حتى يكون سيدا فى حياته ، وليس عبدا ذليلا .

ورغم ضيق ذات اليد ، فقد حارب درويش البحر والد الغلام حتى يدخله الكُتَّاب لكى يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ بعض آيات من القرآن الكريم . ولكن القدر لم يمهل الأب حتى يكمل الغلام تعليمه الأول ، فمات قبل أن يبلغ سيد السابعه من عمره . ومع أن أمه وكانت تدعى « ملوك » غير

ميسورة الحال إلى الدرجة التى تنفق منها على تعليم الغلام ، إلا أنها تحملت ، وكافحت ، حتى تضمن لـه الاستمرار فى المدرسـة ، فقد رأت فيه مـا جعلها تتوسم فيه خيرا كبيرا .

وقد بـدأت مواهب وقدرات الغلام تظهـر وتبدو جلية بمجرد التحـاقه بـا لمدرسة الابتـدائيـة حيث كان يحفظ الأنـاشيـد ، ويلقى الأغانى بصـوت شجى ، ونغم عذب ، وخاصة أعمال الشيخ سلامة حجازى .

ولكن عظمة سيد درويش لم تكن وليدة اللحظة وإنما هى فطرية لدرجة كبيرة ، فقد ذكرت أمه ذات مرة أن ابنهـا كان يهتز ، ويستثار لسماع الموسيقى أو الغناء منـذ أن كان فى شهـره الأول ، حتى إنـه كان يترك ثـديها ، ويتجول بعينه بحثا عن مصدر الموسيقى أو الصوت .

كما ذكرت أنه كان يهوى الجرى وراء البـاعة المتجولين والسقاة ليستمتع بنداءاتهم الجميلة التى كانوا ينشدونها لجلب الزبائن ، وترويج بضائعهم .

وقد كان الصبى الصغير مشهـورا بين أقرانه ومدرسيه با لمدرسـة بقدرته على الغناء الجميل ، حتى إنه كان يصحب التلاميذ عقب اليوم الدراسى إلى الساحـات والحدائق ليغنى الأناشيـد والأغانـى ، ولم يقف الأمر عنـد هـذا الحد ، فقـد ذاع صيتـه فى الحارة والحى فأخـذ النـاس يلتفـون حـول الصبى الموهـوب يستمعون إليـه ، ويستمتعون بما ينشـده ، ويصفقون لما يظهـره من براعة ومقـدرة .

ورغم أن سيد درويش كان فنانا حتـى النخاع إلا أن أمه كانت ترى أن مستقبل الغلام لابد وأن يذهب فى اتجاه آخر ، أكثـر أمانا واستقرارا ، وضمانا لأيام قـادمة لا يـدرى سوى الله مـاذا يمكن أن يحدث فيها ، نـاهيك من أن

نظرة الناس وقتذاك وخاصة الأباء والأمهات للفن كانت ضيقة أو غير مشجعة !

قدمت الأم لابنها أوراقه فى المعهد الدينى العلمى الذى كان قد فتح لتوه أبوابه فى تلك الأيام ، ورغم اهتمام الابن بدراسته فيه ، إلا أنه لم ينسَ الفن بل استمر فيه ، وأخذ يُحيى الحفلات والأفراح لأصدقائه والمعجبين به حتى أصبح خلال فترة وجيزة حديث الإسكندرية كلها ، وأحد أكثر من يشتهرون فيها بالغناء الجميل .

ومع الأيام لم يجد سيد درويش مفرا من الاعتراف بحقيقة واقعة فى حياته ؛ ألا وهى أن « صاحب بالين كذاب » وأن الجمع بين الفن والدراسة أمرا فى غاية الصعوبة ، فالسهر والأفراح اللازمة لكسب الرزق ودراسة الموسيقى بالاعتماد على الذات يحتاج إلى تفرغ تام . ورغم نجاحه بتفوقه فى السنة الأولى بالمعهد إلا أنه سرعان ما قرر أن يتركه من أجل الفن .

وبعد ترك المعهد تزوج سيد درويش وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ولم تكن بالطبع هى الأخيرة فقد تزوج ثلاث مرات أخرى ، كما أحب كثيرات كُنَّ مصدرا لوحيه وإلهامه .

وفى ذلك الوقت ، استطاع سيد درويش لأول مرة أن يخرج العالم عملاقا فى مجال الفن عندما لحن طقطوقة « زورونى كل سنة مرة » ، وكانت عتابا رقيقا لامرأة أحبها وهجرته . وكان وقع الأغنية كالصاعقة التى نزلت فوق رءوس الجميع فنبهتهم إلى أن هناك فنانا عظيما تصوغه الحياة ، وتشكله لكى يتبوأ مكانة عظيمة .

ولكن الفترة التى تلت هـذا العمل المبدع شهدت تـراجعا ملحـوظا فى تقدم سيد درويش الفنى حيث اضطرتـه متطلبات الحياة ، وتكاليف المعيشة أن يغنى فى الحانـات والملاهـى والبـارات ، وظل هـائما على وجهــه كل همه وشغله الشاغل هو توفير نفقات العيش لأمه وشقيقته وزوجته .

وأثناء غنائه ذات مرة على إحـدى المقاهى ، سمعه الأخوان سليم وأمين عطا الله وعـرضا عليـه السفر للشـام ، ووافق وخرج لأول مـرة فى حياتـه من مصر وفى أول رحلة فنية فى تـاريخه الفنى ؛ ورغم عودته من الشــام مفلســا إلا أنه استطاع التعرف على التراث الشامى وخاصة السورى وحفظ بعضه .

وبعد عودة سيد درويش ومولد ابنه محمد البحر عاود الغناء فى الحانات والأفراح ثم سافر ثانية لسوريا ، وكانت رحلة ناجحة عاد بعدها ومعه بعض النقـود ليبـدأ تلحين أعمالــه الـــر ائعـة « فى شرع مين » ، « ضيعت مستقبل حياتى » ، « ياللى قوامك يعجبنى » ، « أنا هويت » .

ثم التقى سيد درويـش مع الممثل الراحل نجيب الـريحانى أحد أعظم نجـوم عصره ، وجـورج أبيض أحــد رواد المسرح فى مصر والعــالم العـربى ومعهم قام بتلحين عدد من الأوبريتـات الاستعراضية منها «ولو» و «اشى» ، و « قولوا له » و « فشر » ورواية « العشرة الطيبة » .

وسرعان ما ذاع صيت سيد درويش ، وبلغـت شهرته جميع أنحاء مصر والعالم العربى ، خـاصةبعد ما أصبح اللحن الأول لفـرقة على الكسار ومنيرة المهديـة ، ثم أنشأ فرقة خـاصة به ، ولحن روايتى « شهـرزاد » و « البروكة » ؛ وكان أعظم مـا يميز ألحـــان سيـد درويش وأغنياته هـو قربها أو بمعنى أدق إلتصـاقها برجــل الشـارع ، وتعبيرها عن معـانـاته وظـروفه الصعبـة وسط

احتلال ، وبطـالة وكسـاد ومَنْ مهد سيد درويش بفنـه لثورة شعبيـة ، وقدم ألحانا حماسية تلهب وجدان الشعب ، وخاصة مع ثورة ١٩١٩ .

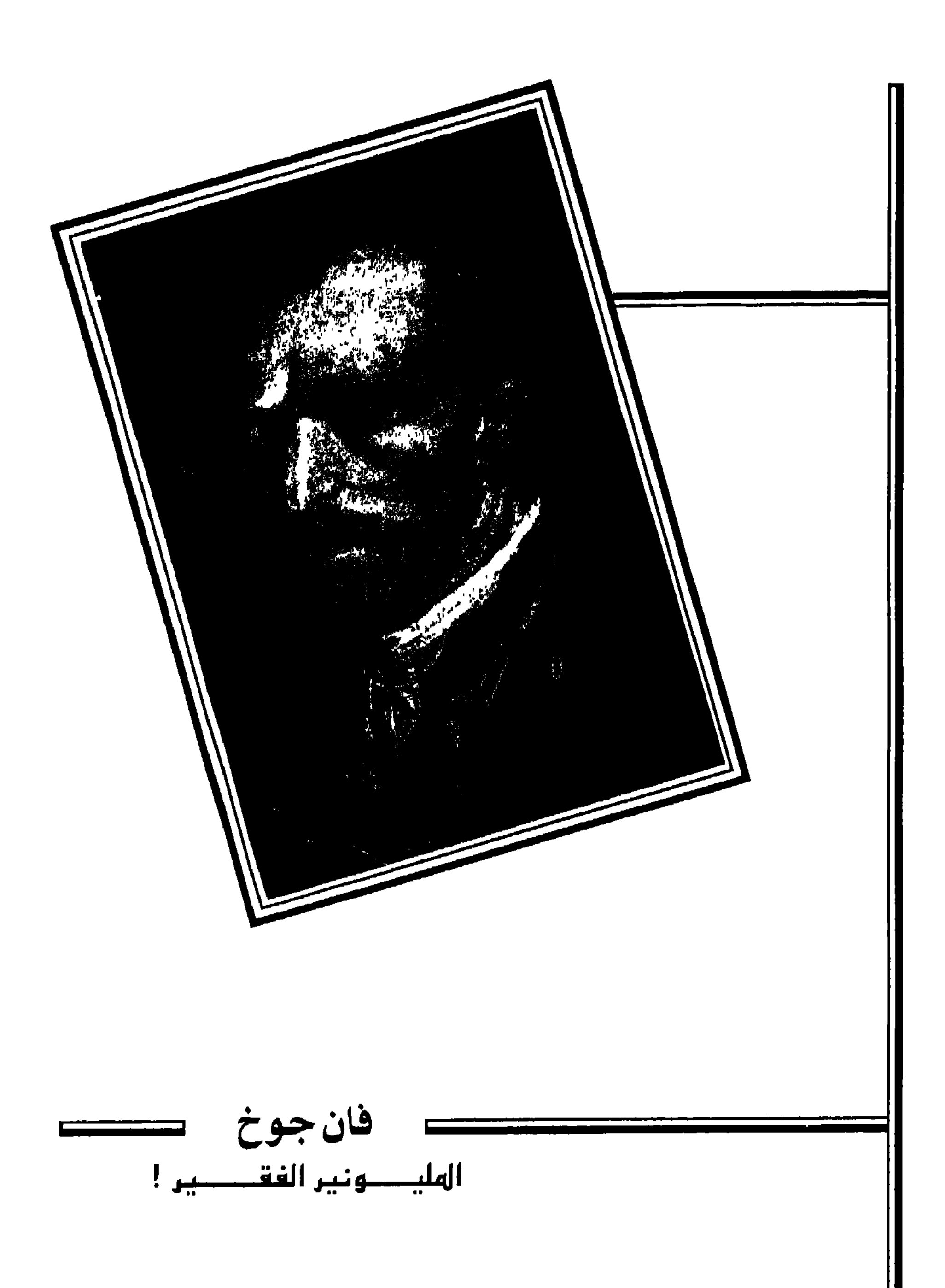
كما كانت هذه الثورة إيذانا بمرحلة جديدة فى حياة هذا العبقرى الفذ ، فقد خـرج سيد درويش فى مظاهرات يقـودها بنفسه ، ويلقى فيها الأنـاشيد الـوطنية وعلى رأسهـا ذلك النشيد الخالـد الـذى لا يزال يلهب حماسنـا كلما سمعنـاه ، والـذى أصبح النشيـد الـوطنى لمصر « بـلادى بـلادى لك حبى وفؤادى » .

كما قدم سيـد درويش أناشيد أخـرى لا تقل روعة عن بـلادى بلادى » مثل « أنا المصرى كريـم العنصرين » ، «قوم يامصرى مصر دايما بتناديك» .

ومن أشهر مواقـف الشيخ سيد درويش الوطنية سفـره إلى الإسكندرية لاستقبال سعد زغلـول الزعيم الوطنى لـدى عودته من أوربا ، وكـان قد أعد لحناً وطنياً لاستقباله فى غاية الروعة.

ولكن لم يمهل سيـد درويش حتى يلقى لحنـه الجميل فقـد وافته المنيـة عقب وصوله الإسكنـدرية بيوم واحد . مات سيـد درويش فنـان الشعب ولم يشيع جنازته غير نفر قليل ، مات دون أن يبلـغ الثانية والثلاثين من عمره ليسدل الستـار على حياة فنيـة حافلـة، لعبقرى قلما يجود الفن بمثلـه . رحل سيد درويش فى ريعان شبابه ، تاركاً تراثاً خالداً عاش وبقى وسيظل.

□○□○□



فان جوخ

المليـــونير الفقـــير !

ملايين الناس قد لا يعرفون أن الرسام العالمى الأسمر « فنسنت فان جوخ » كان مصابا بلوثة عقلية ، وأن هذه اللوثة كانت سر عذابه ، وشقائه الذى لم ينقطع منذ طفولته ، وحتى إطلاق الرصاص على نفسه تحت تأثيرها ، ليسدل الستار على حياة أحد أعظم الفنانين فى التاريخ .

فعند غروب شمس يوم الأحد السابع والعشرين من شهر يوليو عام ألف وثمانمائه وتسعين ، استوقف « فان جوخ » مشهدا ، لطالما كان يحلم بتصويره .. حقل صغير من حقول قريته « أوفرسورواز » . كان المشهد فى غاية الروعة . حقل ذهبى تتشعب فيه دروب صغيرة شقراء ، يحيط بها إخضرار مشرق ، وفى البعيد يطل أفق عميق الزرقة كأمواج البحر ، تسرح فى خلفيته غربان بلون الظلام .

وبينما يضع « جوخ » فرشاته جانبا ، بعد إتمام لوحته ، فإذا به يشعر بضيق شديد ، أعقبته حالة عصبية حادة ، وارتعاشة سرت فى كل أوصاله ، إنها النوبة البغيضة ، الصرع الذى أضيف إلى ما لديه من أمراض ، وفجأة بدأت أسراب الغربان تنعق فوق رأسه ، وتحوم حوله ، فأخرج مسدسه وبدلا من أن يصوب عليها أطلق الرصاص باتجاه صدره لتنفذ رصاصاته إلى قلبه ، وتكتب نهايته المبكرة !

وهكذا مات « فان جوخ » منتحرا - دون قصد - تحت تأثير نوبات الجنون ، نتيجة لمرض الصداع النصفى اللعين الذى داهمه فى فجر شبابه ، واستفحل فيها بعد ليأخذ صورا أكثر ضراوة ، وفتكا ، وتدميرا لصاحبها .

ورغم أن « جـوخ » الـذى ولـد فى الثلاثين من شهـر مـارس عـام ألف وثمانمائه وثلاث وخمسين عاش ومات فقيرا إلا أنه ترك تراثا خالدا حفر اسمه فى سجل العظماء ، وقـد ولـد صـاحبنـا فى بلـدة « زونـدبت » لأب قسيس بروتستـانتى طـيب القلـب ، وكـان وهـو غلام يميـل إلى العزلـة والتجول وحيدا فى الحقول .

ومع أن « جوخ » لم يكسب من فنه ، ولم يبع لوحاتـه أثناء حياته ، وقاس الجوع والبرد والمرض ، إلا أن أعمالـه سجلت أعلى الإيـرادات من محصـلة بيعهـا ، حتى أن لـوحـة « عبـاد الشمس » مثـلا بيعت فى ١٩٨٧ بـ٣٦,٣ مليون دولار ، ولوحة « إيريس » بـ٩ , ٥٣ مليون دولار .

ورغم أن « جوخ » مـات فى ريعان شبابـه ، إلا أنه تـرك لنا ما يـزيد عن ١٥٠٠ لـوحـة فنيـة نادرة كـانت بـدايـة ظهـور المذاهب التعبيريـة فى الفن التشكيلى الحديث .

والحقيقه أنه ما من فنان كتب عنه مثـل « فان جوخ » ، كما كانت حياته دائما مثارا للجدل الواسع ، خاصـة بسبب المواقف الغريبة فى حياته ، وآرائه الخاصة المتفردة فى الفن ، والنابعة عن تجربة ذاتية لصاحبها ، كما كانت لكل لوحة من لوحاته قصة تصلح وحدها لرواية عظيمة .

فهناك لـوحة « لفان جـوخ » يصور فيهـا نفسه وهناك حمادة حـول أذنه اليمنى . ويروى الباحثون أن جوخ المصاب بلوثـة جنون ، كان أحيانا غريب السلوك بـدرجة هائلـة حتى إنه قطع أذنـه وقدمها لسـاقية الحانة البـاريسية وتدعى « غابى » كدليل على حبه لها .

وتروى الكتب التى تناولـت حياة هـذا العبقرى الفذ أنه أراد أن يعيد إلى فتـاة الحانـة السيئة السمعـة إنسـانيتهـا الضـائعة بين الرجـال .. وضبـاب

الـدخـان .. والليل الأسود .. وأقـداح الخمـر .. فقـال لها : « أحبك » فلم تصدق كلامـه .. فقد سمعت هذه الكلمة ألف مـرة من رواد الحانة وزبائن البار ، فما كـان منه إلا أن قطع أذنـه كدليـل على حبها ، وقال : « إليك هذه الهدية الثمينة ، فاحتفظى بها !! » .

كما كان « لجوخ » قصـة أخـرى طريفـة مع صديقه الفنـان العـالمى « جوجان » الوحيد الذى كان كثير الخلاف معه ، فقد رسم « جوجان » لوحة لجوخ لم تنل إعجابه ، لأنه كان يعتقد أنها لا تشبهه ، وكان رد « جوجان » أنه رسمها «لجوخ » كما تخيله فى سن المائة عام .

وقد انتـابت « جوخ » فى تلك اللحظة نـوبة جنون ، فأخرج مسـدسه ، وأطلق على « جوجـان » احتجاجا على موقفـه ، وطاشت الرصـاصة ؛ ولكن الصديقان افترقا ، ومع ذلك فقد كان يجمعها حب وود وصداقة لا حد لها .

وعندما مـرض « جوجان » ولزم الفـراش قرابة الأسبوعين تـرك « جوخ » كل أعماله ، وذهب يقيم معه حتى يعتنى به ، ومهما كان من خلاف فى الرأى بين « جوخ » و « جوجـان » إلا أن كليهما كان معذبا ينـاضل من أجل رسالة الفن العظيمة .

ولم يكن « فان جـوخ » كباقى رفاقه مـن المبدعين ، فقد كان الفن لـديه شديد الخصوصية ، يرتبط أشد الارتبـاط بعقليته ، وجنونه ، وأحزانه وآلامه ، حتى إنه يتعـامل مع الرسم من خـلاله هو .. انظـر إليه يقـول : « لقد كنت دائما اعتقد أن مـا أرسمه هو الحقيقـة وأن الواقع ما هـو إلا رؤية مزيفـة لعالم الحقيقة داخلى » .

ويؤكد علماء النفس أن روائع « فان جوخ » وبالذات رسوماته العظيمة التى أبدعها قبل وفاته هى أكبر دليل على علاقة الفن بعلم النفس لأنها المرآة التى تعكس حالة الفنان النفسية والمزاجية ، وأبرز لوحات « جوخ » تلك التى يصور فيها نفسه ، ولعلها أصدق دليل على ذلك فقد رسم نفسه بأشكال مختلفة ، وملامح مختلفة تعبر عن حالات نفسية ومزاجية متباينة .

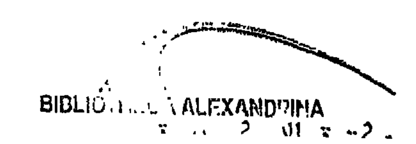
فقد رسم لنفسه لوحة « وجه بلا مشاعر » وتوجد بمتحف امستردام . وقد وضع فان جوخ فى هذه اللوحة كل أحزانه وقال لأخيه فى رسالة له . « هذه لوحة لرجل بائس وهذا ما سيقوله كل من يشاهدها » .

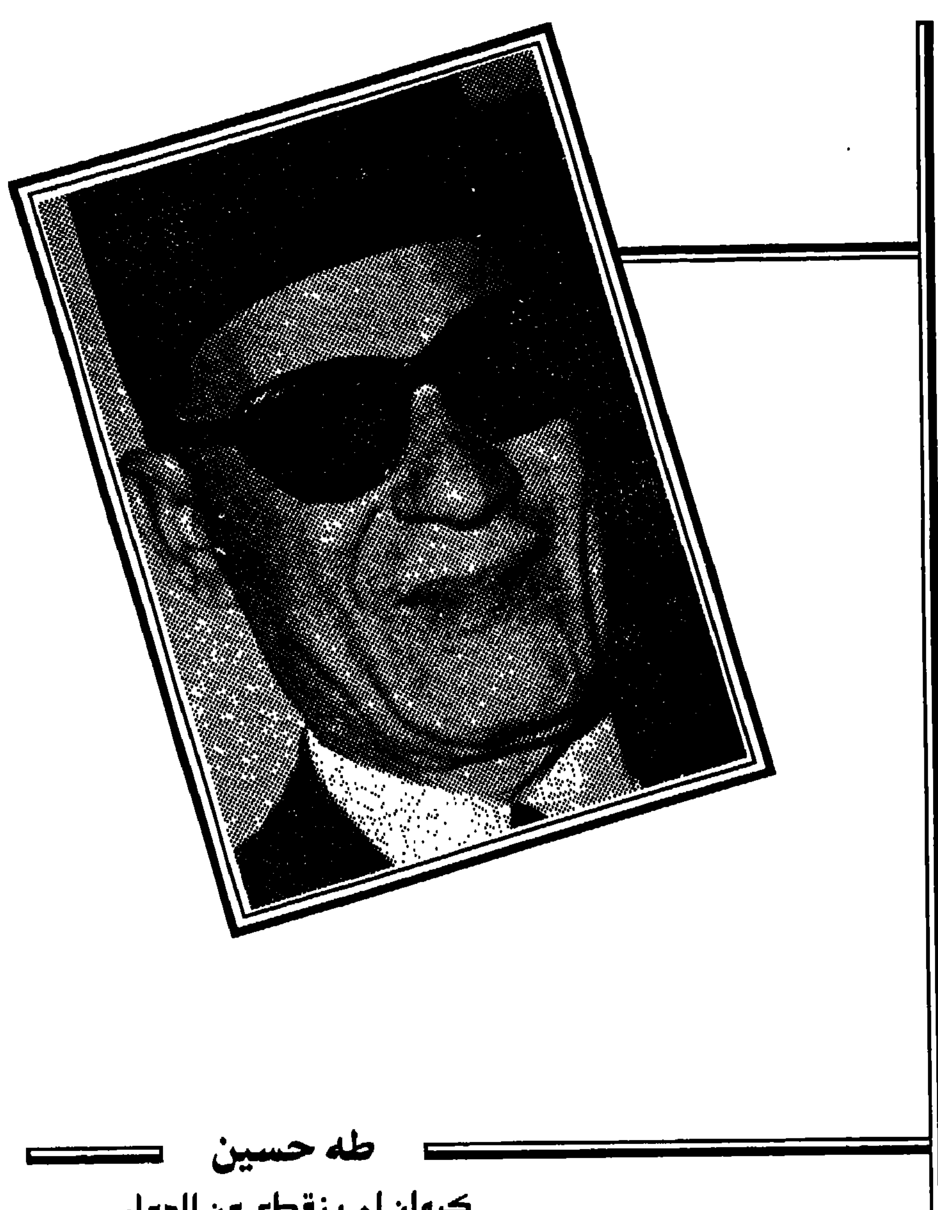
كما رسم لوحة لنفسه تصور حادثة قطع أذنه وهى الآن بحوزة ثرى أمريكى يُدعى« لى . ب . بلوك » بشيكاغو .

كما رسم لنفسه لوحة أخرى هى الآن بمتحف « اللوفر » فى باريس ، تعبر عن الوحشة القاتلة ، والوحدة المخيفة التى كان يحياها .

وهكذا كانت حياة « فان جوخ » التى لم تتجاوز السبعة والثلاثين عاما وكانت رحلة شقاء مع الألم والعذاب والتعاسة ، ورحل الطالب الذى بعث به أبوه لدراسة اللاهوت ، ورفع المعاناة عن كاهل الناس فزادته عذاباتهم عذابا فترك هذه المهمة ، وحاول أن يرفع صرختهم من خلال أعماله التى كانت تركز على البسطاء والفقراء والمعدمين . رحل المليونير الفقير الذى بيعت لوحاته بالملايين بعد وفاته منتحرا تحت تأثير مرضه !!

□○□○□





طه حسين

كروان لم ينقطع عن الدعاء

ليست البطولة أن تترفع على البطـل .. البطـولة هى أن تكون البطـل ، أو حتى تحاول أن تقترب منه بقدر الإمكان ، بعض الناس يفعلون هذا وهنا يكون المرء منهم عظيما ؛ ولكن هناك أناسا يصنعـون بطولة لم يقدر لأحد أن يأتى بها من قبل ، ويجعلـون من أنفسهم نموذجا متفـردا ، ومستقلا لبطـولة نادرة من نوع خاص ، ويكون المرء منهم هنا أعظمُ .

ومن هؤلاء العظماء الـذين صنعوا من أنفسهم ملحمـة بطولية تتنـاقلها الأجيــال ، وتتعـلم منهـا الأجيال ، وتحذو حـذوها الأجيال على مر العصور « عميد الأدب العربى الراحل الدكتور طه حسين » .

وعنـدما أراد عميـد الأدب العربى أن يلخص لابنتـه مأساتـه ؛ وكيف حـولها إلى قصة نجـاح منقطع النظير ، وانتصار سـاحق لأحـد أفراد الطبقـة الفقيرة الذى لم يكن يقدر لأمثـاله - فى ذلك الوقت - أن يبلغوا مـا بلغه هو ودفع من أجله ثمنا غـاليا فاحش الغلاء .. عندمـا أراد طه حسين أن يصور لابنته أن وراء عظمة أبيهـا ، وصورته الجميلة المشرقـة ، ورغد العيش ، ويسر المعيشـه قصـة كفاح تحمـل فيها الجوع والبرد والحر وكل ألـوان البـؤس قـال متحدثا عن نفسه :

« عـرفته فى الثـالثة عشرة من عمـره حين أُرسل إلى القاهـرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهـر ، إن كـان فى ذلك الـوقت لصبى جـد وعلم . كـان نحيفـا شاحب اللـون مهمل الـزى أقرب إلى الفقـر منه إلى الغنى ، تقتحمـه العــين اقتحاما فى عباءته القذرة وطـاقيته الذى استجال بياضها إلى ســواد قـاتم ، وإلى هـذا القميص الـذى يبين من تحت عبـاءته ، وقـد اتخذ ألـوانـاً

مختلفة تقتحمه من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين ، تقتحمه العين فى هذا كله ؛ ولكنها تبتسم حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف ، واضح الجبين مبتسم الثغر مسرعا مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظُلّمَة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين » .

ويقول : « كان سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقته ، وكان يشعر بأن له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكانا خاصة يمتاز من مكان إخوته وأخواته . أكان هذا المكان يرضيه ؟ أكان يؤذيه ؟ ، الحق أنه لا يتبين ذلك إلا فى غموض وإبهام ، والحق أنه لا يستطيع أن يحكم فى ذلك حكما صادقا ، كان يحس من أمه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا .

وكان يشعر من إخوته بشىء من الاحتياط فى تحدثهم إليه ومعاملتهم له ، ولكنه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى ، وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئا من الإهمال أيضا ، والازورار من وقت لآخر .

وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ، لأنه كان يجد فيه شيئًا من الإشفاق مشوبًا بشىء من الازدراء .

على أنه لم يلبث أن تبين سبب هذا كله ، فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلا ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه .

وكان ذلك يحفظـه ؛ ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحـالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنــه سمع إخوتـه يصفون ما لا علم لـه به ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى .

هكذا تحدث عميـد الأدب العربـى الراحـــل الـدكتور طـه حسين عن نفسه ، فى بلاغة شديدة ، وفصاحة بليغة ، وكيف اكتشف ، وهو لم يزل يتفتح لتوه للحياة أنه أعمى لا يستطيع أن يرى ما يراه الآحرون من حوله .

وقد كـان طه حسين صـادقا فى وصف مـا لقيه فى طفـولته من متـاعب ومصاعب لا حصر لها جعلته يحرم حتى على نفســه ألوان اللعب ، والعبث ، وكل مـا يكلفه عنـاء أو يعرضـه للضحك أو الإشفاق ؛ لـذا كان دائما يعـزل نفسه عن باقى أقرانه ، وينتحى جانبا ليلعب وحده دون أنيس أو جليس .

ولكن شيئا واحـدا كان يشد إليه طـه الصغير ، وكان يملأ عليه حيـاته الطفولية الوادعة .. إنه إنشاد الشاعر ، وما يشتمل عليه من قصص خيالية ، وملاحم بطوليـة بعضها واقعى والآخر من بنات أفكـار ، وخيالات منشده ، كما كان صـاحبنا يعشق الاستماع إلى أحـاديث أبيه مع أصحـابه التى كـانت غالبـا ما تدور حـول قصص الغزوات والفتـوحات ، وأخبار عنترة والظـاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنُساك الصالحين .

وكما لعبت القصص والحكايـات والأغانى والأناشيد الصـوفية دورا فى حياة الصغير الذى كان يعوض فقدان بصره ، بـرهافة سمعه ، وقوة بصيرته ، وشفافية قلبـه ، لعب الكتاب دورا عظيما كان له أبلغ الأثـر فيما بعد فى تطور وارتقاء فكر وثقافة طه حسين .

فقد استطاع الفقيد الراحل بمسـاعدة الكُتَّاب أن يحفظ - وهو طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره - القرآن كله ، وكان لوالده فضل كبير ، ولكن هذا

الفضل كان نتيجة لما يراه فى الصغير من حب للعلم والمعرفة ، وإقبال على استيعاب كل ما يعرض عليه الأمر الذى دفعه (الأب) إلى مواصلة دعمه ومساندته لميل الغلام للعلم والمعرفة ، وتحفيزه على الاستمرار والتقدم .

وما أن انتهى الصبى الضرير من حفظ القرآن حتى سئم الكُتَّاب والشيخ ، وأخذ قلبه يتعلق بالقاهرة ، وبصفه خاصة الأزهر الشريف ، وشرعت نفسه تتوق إلى الالتحاق بهذا الصرح الكبير ، وظل ينتظر بفارغ الصبر عودة أخيه الأزهرى من القاهرة لكى يصطحبه حال رجوعه إليها .

ولكن أخيه أشار عليه بأن يبقى بالقرية لمدة عام آخر يستعد فيه جيدا للأزهر ، بأن يتعلم أصول الفقة ، وبعضا من الشعر وكل ألفية ابن مالك ، وتم له ما أراد .

وانطلق ابن القرية المتعطش للعلم والمعرفة إلى المدينة ، حيث الأزهر الشريف ، ينهل من العلم ، ويغترف من المعرفة على أيدى كبار العلماء ، والشيوخ الذين كانوا أعلاما فى عصرهم .

وقد كانت دراسة طه حسين بالأزهر شاقة وعسيرة وكم انتقد الشيخ الجليل الأزهر فيما بعد خاصة وأن التعليم بعد فترة فيه يصبح هامدا بلا حراك فلا إضافة ولا تجديد .

وقد عرف طه حسين أن بعض الطلبة من أبناء الأزهر يعبرون البحر إلى أوربا فى بعثات علمية ؛ ولكن الأمر ينطوى على وساطات ، وشفاعات ، وهو لا يملك سوى القليل ، ويعتمد على ما يقدمه إليه الأزهر من طعام وكتب مجانيـــة .

ومع ذلك ، فقد جد الشاب الضرير ، واجتهد حتى أصبح علما بين رفاقه من طلاب العلم ، كما أجاد اللغة الفرنسية ، وبلغت عظمة ابن القرية الدرجة ، التى لم تجد إدارة الأزهر مناصا من إيفاده إلى فرنسا .

وهناك تحمل طه حسين الكثير ، وعانى الغربة ، وقاسى فقدان الأهل والوطن ، ومع ذلك استطاع بعد عامين أن يحقق قدرا عظيما من النجاح ، خاصة بعد أن التقى مع شابة فرنسية جميلة ورقيقة ، عطوف ، وحنونة سرعان ما أحبته وأحبها وأصبحت رفيقته فى العلم وفى الحياة فيما بعد عندما تزوجا .

وعندما عاد صاحبنا إلى مصر لا ليجلس داخل الأزهر ، أو يكون أستاذا فقط فى الجامعة وإنما ليدخل غمار الحياة السياسية والاجتماعية العاصفة فأخذ يخاصم فى السياسية ، ويحارب من أجل الإصلاح الاجتماعى ، ويناضل من أجل تحرير الفكر العربى ، كما كان له دور كبير فى تنقية المناهج الدراسية فى الأدب والتاريخ ، ونقل بعض المناهج الحديثة من الغرب .

ولعل صراحة وجرأة وإصرار طه حسين على مواقفه الوطنية ، وخاصة من القضايا الحساسة والشائكة فى بلد يحكمه الملك والإنجليز ، ويعانى الناس فيه أوضاعاً فى غاية الظلم والذل والهوان .. كل هذا أدى إلى إقصائه عن كلية الآداب حيث كان عميدها ، ومن هنا أطلق عليه المثقفون لقب « عميد الأدب العربى » لأن فيها خير تعويض عن عمادة الآداب ، كما أنها مرتبة أسمى ، ومكانة أعلى يستحقها الأديب والمفكر والمصلح الاجتماعى الكبير .

وما لبث طه حسين بعد ذلك أن عين مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ، ثم تولى الوزارة قبل قيام الثورة .

وقد قـدم الفقيد العظيـم للمكتبة العـربية كتباً نقديـة ، وأعمالاً روائ
وقصصيـة قلما يجود علينـا الـزمان بمثلهـا ، فمن أعمالـه الخـالدة : « دعـ
الكروان » ، « الوعد الحـق » ، « شـجرة البؤس » ، « المعذبون فى الأرض »
« الأيـام » ، « أدب ونقـد » ، « حـديث الأربعـاء » ، « العصر الجاهلى
وعشرات القصص والـروايات والكتب النقـدية الأخـرى التى أثرت حيـاة
الثقافية أيما إثراء .

كما ترجمت معظم أعمال هذا الأديب العملاق إلى عدد من لغات العالم
كما مثل هو مصر فى كثير من المؤتمرات الدولية ، وحصل على أرفع الأوسمة
وأكبر النياشين ، وتم ترشيحه أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل ، إلا أن الغرب ل
يكن وقتـذاك ليقدمها لأديب عـربى لأسباب كثيرة لا تخفـى على أحد ، وفى
مقدمتهـا الهيمنة الصهيونيـة المطلقة وقتذاك على كـافة المؤسسات الإعـلامية
والثقافية والعلمية فى أوربا .

وقد كتب عميد الأدب العربى الراحل ذات مـرة متحدثا عن مذهبه فى
الحياة ، ومصورا مـا لاقى من الصعاب ، وموضحا أسلحتـه التى استطاع أن
يُقهـر بها أقسى الظـروف ، ويتغلب بها على أشـد الصعـاب ، وقـد رأينـا أن
نسوق للقارىء ما قاله الراحل العظيم عن نفسه ، ومذهبه .

كتب طه حسين تحت عنوان « حب للمعرفة وصبر على المكروه » يقول :
« أكاد أعتقد أنى لم أعرف مذهبى فى الحياة إلا شيئا فشيئا ؛ لأن هذا المذهب
نفسه لم يتكون إلا قليلا قليلا فرضتـه علىّ ظروف الحياة وهى التى استخرجته
من أعماق طبيعتى استخراجا بعد أن كان كـامنا فيها كمون النار فى العود كما
يقول الشاعر القديم .

وأول ما استكشف من هـذا المذهب خصلة أرى أنها قـد صحبتنى منذ الصبـا وهى : الظمـــأ الشـديد إلى المعـرفة . الظمـــأ الـــذى لا يطفئـه اكتسـاب العلم ، وإنما يـزيده قوة وشـدة والتهابا . فأنـا لاأحصل نصيبا من المعرفـة إلا أغرانى بأن أحصل شيئـا آخر أبعـد منه مـدى وأشد منـه عمقا ، وليس فى هــذا نفســه شىء من الغـــرابة ، فإذا كانت حاجـــة من عاش لا تنقضى ، فحاجـة من ذاق المعرفة أشد الحاجـات وأعظمها إغراء بالتـزيد منها والإمعان فيها .

وأكبر الظن أن هذه الآفة التى ألمت بى فى أول الصبا هى التى أذكت فى نفس هـذه الجذوة ، فهى قد صرفتنى عـن كثير مما يشغل المبصرون وحـرمت علىّ ألـوانـا من جـدهم ولعبهم ، ويسرتنـى لمـا خُلقت لــه من الــدرس والتحصيل انفق فيهما من القوة والجهـد والنشاط والفراغ مـا ينفقه غيرى فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها ، وما كلفت بمثل من الأمثال السائرة قط كما كلفت بهذا المثل القديم « لابد مما ليس منه بدٌ » ، وما أحببت بيتا من الشعر القديم كله كما أحببت بيت أبى العلاء المعرى :

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه
فيخـــرج مـن أرض لــــه سماء

لم يكن بى إذن من أن أوطّن نفسى على الفراغ لما أحسنه ، أو لما ينبغى أن أحسنـه من الـدرس والتحصيل مــا وجـدت إليهما سبيـلا ، وقـد فعلت أو حـاولت أن أفعل فى آخـر الصبـا وأول الشبـاب ؛ ولكن مـا أسرع مـا رأيت وسـائل الـدرس والتحصيل عسيرة على أشـــد العسر ، فقـد كنت مستطيعـا بغيرى - كما يقول أبو العـلاء - « لا أذهب ولا أجىء ، ولا أغدو ولا أروح ،

ولا أقرأ ولا أتعلم إلا أن يعينني على ذلك معين ، وكان طريقي إلى الدرس
والتحصيل في تلك الأوقات ضيق محدود بدأ بي في الأزهر وانتهى بي إ
الأزهر » .

ويقول طه حسين : « وكان عليّ أن أنفق العمر في هذا المقدار المحد
من العلم الذي كان الأزهريون يبدأون منه ويعيدون ، ولا يضيفون إليه وقت
شيئا ولا يستطيعون أن يضيفوا إليه شيئا .

وهنا ظهرت خصلة ثانية من هذه الخصال التي ألفت مذهبي
الحياة ، وهي : الصبر والمغالبة واحتمال المكروه ما وسعني احتماله ، فق
صبرت وصابرت واحتملت من ألوان المشقة في الأزهر ما رضيت عنه ، و
سخطت عليه ؛ ولكن رأيتني مدفوعا إلى شيء من المغامرة لم يكن يُدفَعْ إل
أمثالي في هذه الأيام . فما لي لا اختلف مع بعض الأصدقاء إلى دار الكت
لأقرأ فيها من العلم ما لم يكن الأزهر يسيغه ، ولم أكد استكشف ع
القدماء من العرب وآدابهم حتى صرفت إليهما عن الأزهر صرفا ، رأيتني ثا
على الأزهر ودروسه ثورة جامحة لم أحسب لعواقبها حسابا ، ثم لا أكاد اتص
بالجامعة التي أُنشِئَتْ في تلك الأيام حتى أُكَلَّفُ بما كان يُلْقَى فيها من در
أشد الكلف .

وإذا خصلة ثالثة من مذهبي في الحياة ، وهي : خصلة التصميم :
اقتحام العقبات التي تعترض سبيلي إلى العلم مهما تكن أو أموت دون
وإذاً أنا مصمم على أن أحصل علم الجامعة ثم أعبر البحر إلى أوربا لأطل
العلم هناك » .

ثم يمضى طه حسين فى شرح مذهبه فى الحياة وخصاله حتى يقول : « ولكن خصلة أخرى من خصال مذهبى فى الحياة تكشفها لى الظروف الجديدة التى عشت فيها منذ عدت إلى مصر ، وهى : خصلة الصراحة والجهر بالحق مهما يكن مرا ، والنضال فى سبيله مهما ثقل هذا النضال ، ومهما تكن عواقبه » .

وكذلك رأيتنى أخاصم وأثير الخصومات ، وأحفظ الصدور وأعزى الناس بنفسى وألقى من ذلك الجهد والمشقة والغضب فى وقت واحد من جانب البرلمان وصاحب القصر الملكى ولكننى لا أحجم ولا أتردد وإنما تزيدنى المحنة إقداما وتصميماً .

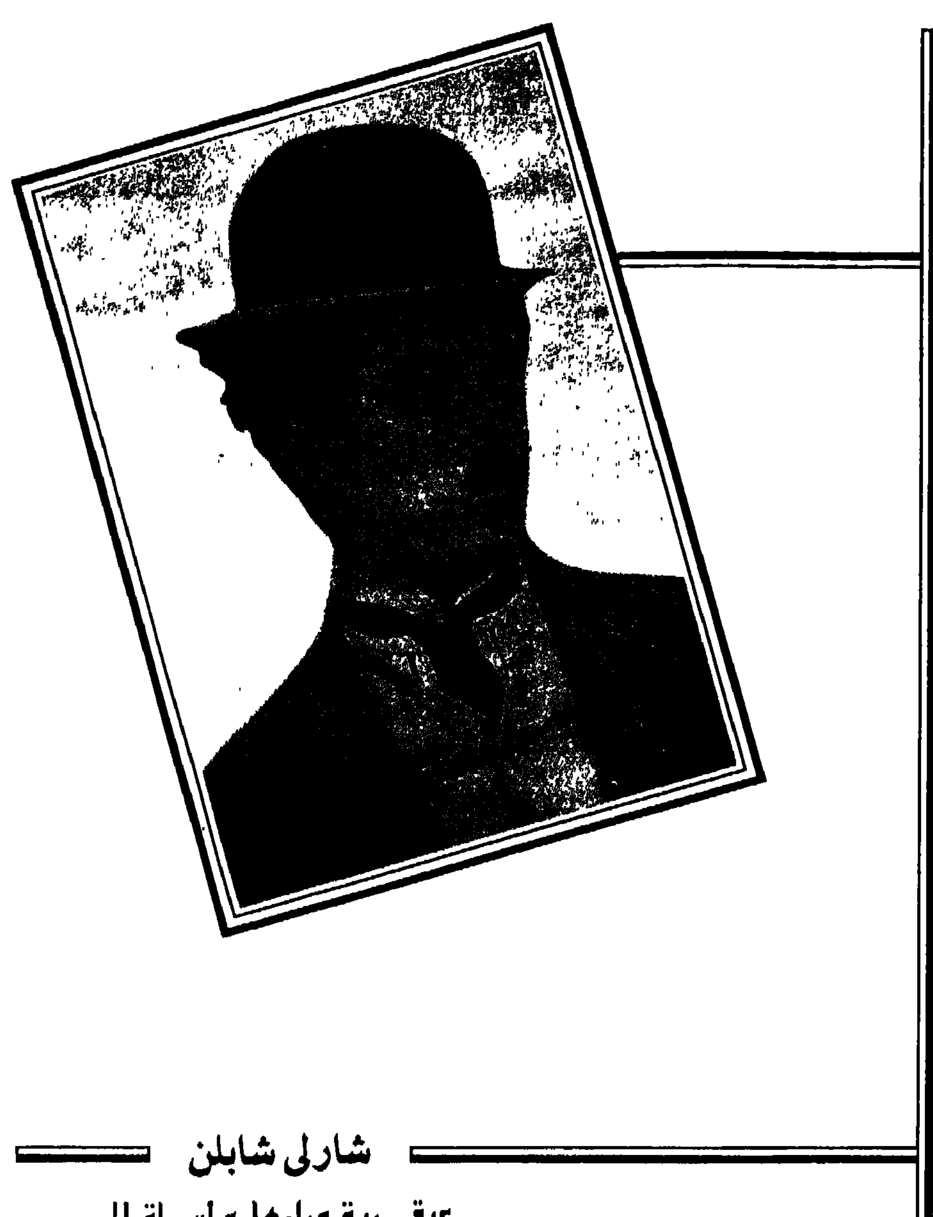
ثم أمضى فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى الراضيين حتى يبلغ الأمر غايته ، فأُقَصَى عن الجامعة ، وأُحَارَبُ فى الرزق ، وأتلقى ألوان النذير فلا يقل ذلك من عزمى وإنما يزيده مضاءً وتصميما ، وكذلك غالبت المصاعب والعقبات على اختلاف مصادرها ، وعلى اختلاف ألوانها وطبيعتها وأتيح لى التغلب عليها آخر الأمر ولو إلى حين .

وهنا تظهر الخصلة الأخيرة التى عرفتها من مذهبى فى الحياة إلى الآن ، وهى : حبى لأن أرى الناس جميعا مثلى فى الشوق إلى العلم والاستزادة منه والوصول إليه دون أن يجدوا مثل ما وجدت من المشقة ودون أن يُمتحنوا بمثل ما امتحنت به من ضروب العناء .

ويؤكد عميد الأدب العربى فى حديثه عن مذهبه فى الحياة الذى نشره - كما ذكرنا آنفا - فى كتاب « مذهبى » الذى أشرف بنفسه على إعداده وضم

عـدة مقـالات كتبهـا أصحـابها من نجـوم المجتمع فى شتى المجـالات عن مـذاهبهم .. يؤكـد طـه حسين أن خصالـه هـذه كانت وراء السعـادة التى نعمت بها نفسه ، وسر الـرضاء الذى يملـؤه عما قام به من أعمال فى حيـاته ، ومبعث راحة الضمير التى كان يأنس إليها .

□○□○□



شارلى شابلن

عبقـــرية وراءها مأســاة !!

لم يبلغ أحد ما بلغه هو من شهرة ، ولم يصل أى فنان فى العالم ما وصل إليه هو من نجاح سابق لم يسبق له مثيل . هو الذى إذا أراد أحد أن يؤرخ للسينما فلا بد أن يمر من تحت عباءته ، وهو الذى إذا أراد أحد أن يتجاهله ، فمعنى ذلك أنه يفرغ هذا الفن العظيم من مضمونه ويجتثه من جذوره .

إنه شارلى شابلن هذا الممثل ، والمخرج العظيم الذى فاقت عظمته الفنية ، وعبقريته السينمائية ، وقدراته ومواهبه التمثيلية كل الحدود « إنه الذى قال أحد النقاد عليه ذات مرة » « شابلن هو الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يقدم فيلما هو مخرجه وكاتب قصته وبطله الوحيد . أى فيلم يعتمد على شخص واحد هو الوحيد الذى يظهر فيه ويصنعه بيديه .. إنه شابلن العظيم » .

والمتتبع لأفلام شابلن العظيمة « أضواء المدينة » ، « العصور الحديثة » ، « مسيو فردو » و « الدكتاتور العظيم هتلر » و « ملك نيويورك » وغيرها يقف مبهورا أمام عظمة هذا العملاق وقدرته الفذة على التمثيل والإخراج والتأليف الموسيقى والغنائى .

ولم يكن شابلن مجرد فنانا عظيما وإنما كان فيلسوفا عظيما أيضا .. انظر إليه وهو يقول : الإنسان يحاول أن يسعد نفسه فلا يحظى إلا بالتعاسة ، ولكن من هذه التعاسة يتولد الضحك . ربما بسبب فظاعة المأساة ، ربما بسبب تصارع الأضداد ، ربما بسبب تجاوز التعاسة لحد الحزن ، حيث يصبح الضحك هو البديل المنطقى .. ربما أيضا ، ويبدو أن شابلن كان يتحدث

عن نفسه ومأساته الشخصية عندما كان يردد هـذه الكلمات الموجعة التى لا تصدر إلا عن نفس مضطربة ، ووجدان متأجج ، وعقلية قهرها الألم .

والحقيقة أن وراء هـذا النجم اللامع فى سماء الفن والذى لم يـزل نـوره يسطع فى ليالى هوليـوود حتى يومنا هذا .. ووراء هذا العملاق مأسـاة إنسانية بطلها الـوحيد هـو الفقر .. ، ربما نلمح « شخوصاً أخرى » فى هـذه المأساة كالبـؤس ، والشقاء ، وتعـاسة الحظ فى البـداية إلا أن الفقر يبقـى هو البطل الرئيسى الذى يلتف بقوة حول عنق شابلن الطفل حتى كاد يختنق .

وقصة شـابلن هى قصة إنسـان عظيم استطاع تحويـل الهزيمة إلى نصر سـاحق ، والشقـاء إلى سعـادة ، والفقـر المدقع إلى غنى فـاحش . إنها قصـة الإنسـان الذى انهالت عليـه الأحجار فخـرج من تحتها شـامخا متحديـا كل القوى التى اجتمعت للقضاء عليه .

يقول شابلن عن نفسه : إن الرسام العظيم « بيكـاسو » فى حياته مرحلة تعيسة اسمها « المرحلة الـزرقاء » أما هو فقد بدأت مع ولادتـه مرحلة اسمها المرحلة الـرمادية .. مرحلـة فى لون الضباب والهباب .. فى لـون اليأس والفقر والبرد والجوع .

فقـد ولـد شارل شـابلن لأب من أصـل فرنسى ، وأم غجـريـة سليطـة اللسان لا تتوقف عـن الثرثرة ، والسباب طيلة فترة تواجدها فى البيت .

أما والده فكـان ممثلا من الدرجة الثالثـة ، ورغـم مواهبـه ، وإمكـانياته إلا أن شخصيته غير السـوية ، وأخلاقه السيئـة كانت سببا فى عدم تقـدمه ، كما أنه كان مدمنا للخمر والنساء مقامرا رغم دخله المحدود .

وتقول أمه ملخصة مأساة أبيه : « إنه يشبه نابليون » عقلية جبارة ، وغرور لا حد له ، وفقر وغطرسة .

ولأن الأب كان غائبا عن البيت معظم الأيام وقلما يخرج من جيبه مليما واحدا يدفع الجوع أو البرد عن الصغير وأمه فى ليالى الشتاء القارسة ، فقد اضطرت أم شابلن إلى استغلال مواهبها فى الغناء لكسب بعض ما يعين على الحياة .

ولكن الأمور لم تستقم حتى مع عمل الأم فبعد عام من ولادة شابلن ، انفصلت أمه عن أبيه لاستحالة الحياة بينهما ، وأعقبت هذا فترة ركود وأزمة اقتصادية طاحنة ، وتوقفت الأم فترة عن العمل ، وبدأت رحلة الأسرة الصغيرة مع الشقاء ، والبؤس والجوع والبرد والحرمان .

وتركت الأم شقتها إلى غرفة صغيرة مشتركة مع أسرة أخرى لعجزها عن دفع الإيجار للشقة ، وكم كانت تبيت الليل تبكى هى وصغيرها على حالهما ، وهكذا أصبح شابلن يتيما ووالده العربيد على قيد الحياة .

ومن الأحداث التى دفعت شابلن مبكرا إلى الساحة ومهدت لاحترافه الفن بعد ذلك ، فهو ما جرى ذات يوم عندما صحبته أمه معها إلى المسرح المتواضع الذى كانت تغنى عليه للسكارى ، والمخدرين ، ففى ذلك اليوم ، وبينما شابلن يقف وراء الكواليس يقلد أمه وهى تتمايل وتتلوى وتغنى فى ضيق ، وزهق واضح ، أُعجِبَ به صاحب المسرح ودفع به فى نفس الليلة ليقلد أمه .

ورغم غرابة الموقف ، ورغم أن شابلن كانت ترتعد أوصاله إلا أنه أظهر خفة ظل لا مثيل لها حتى إن الناس ألقت عليه نقودا كثيرة .

والطـريف أن شابلن كـان كلما ألقيت عليه نقـودا أوقف عملية الغنـاء والتقليد ليجمعها ثم يواصل الأمر الذى جعل الناس تضحك أكثر وأكثر .

ولم يقف الأمـر عنـد هذا الحد فقـد خشى صـاحب المسرح أن يستبقى الصغير شابلن النقود لنفسه ثم يفر هاربا عقب العرض ، فخرج على المسرح يجمع النقود ، فهجم عليه شابلن وأمسك بتلابيبة حتى تأكد أنه أعطى جميع النقود لأمه ثم واصل الغناء .

ومن هنا بـدأ شابلن يظهر مـواهبه وقدراتـه التمثيلية الفذة وخـاصة فى مجال الكـوميــديـا ، وأصبح يخرج على المسرح كل ليلـة يقــدم اسكتشـات ضاحكة ومواقف كوميدية .

ولم تكن أمه راضيـة عن عمل الصغير الذى لم يتجـاوز التاسعـة بالفن خوفا من أن ينتهى مصيره كما انتهى إليه مصير والـده ، وحاولت منعه مرارا ، وكانت تقول له : « سوف تتحـول إلى الخمر والنساء وتتسول إن شاء الله مثل أبيك » ، وظل شابلـن على هذه الحال حتى أصبح عضوا أسـاسيا فى الفـرقة المتواضعة .

كما قـام شـابلن بتأليف « النكت » أو تحـوير ، وإدخـال تعـديلات على« النكت » المعـروفـة ، وخـاصـة السيــاسيـة لتجعل النـاس تـرقص فى مقاعـدها ، ومع هذه الفرقة المتواضعـة التى تعمل بها أمه سافر إلى فرنسا ثم إلى أمريكا ، وهناك كانت الصدمة الأولى .

فقـد اكتشـــف شـابلن فى نيويورك منــذ أول عـرض له أن الأمريكين لا يضحكون للنكـات التى يرقـص لها الإنجليز واكتشف أنـه على الفنان أن يدرس الشعب الأمريكى ليعرف كيف يتعامل معه أو يقدم له فنا .

وبالفعل بدأ شابلن يخط أولى خطواته بنجاح وسرعان ما انتقل إلى هوليوود ، وهناك ابتسم له الحظ حيث عمل مؤلفا ، ثم مساعد مخرج ، ثم مخرجا .

وبدأت أولى إنجازات العظيم شابلن التاريخية ، وأعظم بصماته الواضحة على هذا الفن السابع . فقد استطاع شابلن أن يرتقى بالسينما الصامتة ، ويقدم تحفا نادرة لا نزال نشاهدها ونسعد من أعماق قلوبنا حتى الآن ، وتمكن شابلن من توظيف الحركة فكان أروع من استخدم لغة الحركة السينمائية .

وقد ابتكر شابلن لنفسه حركته التاريخية المشهورة التى كانت تماثل حركة « الروبوت » أو الإنسان الآلى الموجود بيننا اليوم .

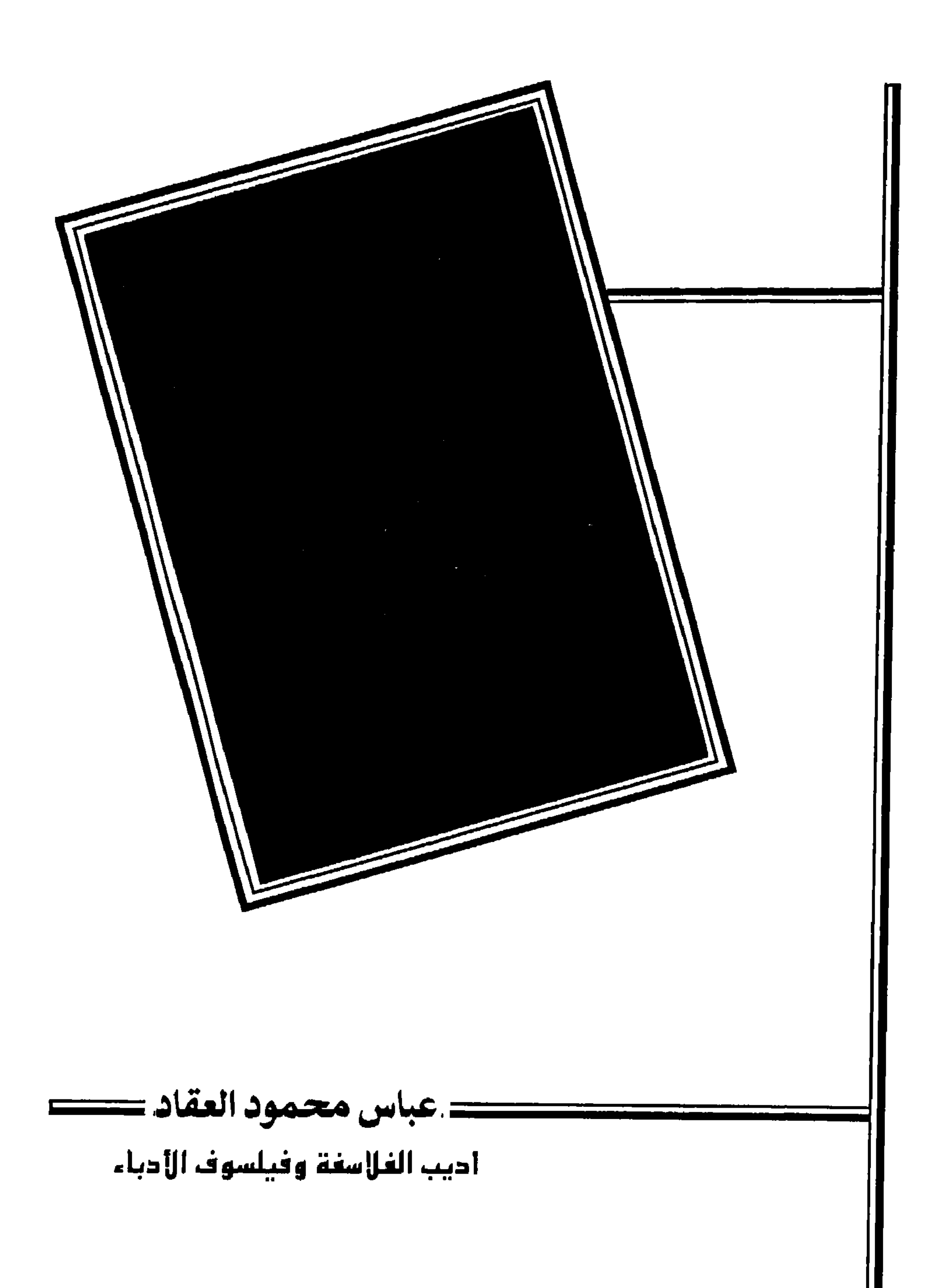
وقد تزوج شابلن أربع مرات كانت آخرهن ابنة الأديب الأمريكى العملاق « يوجيه أونيل » وقد فاز شابلن بجائزتى أوسكار الأولى فى بداية الخمسينات وثالثة عام ۱۹۷۳ .

ولم يكن شابلن مجرد فنان عظيم ، وإنما كان مفكرا أيضا ، وكان شجاعا ، وجريئا ، فقد تجرأ العملاق حتى على المجتمع الأمريكى الذى يقيم فيه ، ويرتبط فيه بكل أعماله ، ومشروعاته .. انتقد أوضاعا كثيرة ، وثار على أوضاع كثيرة .

ولم يسلم شابلن من الأذى فقد دفع ثمن شجاعته ، وإيمانه برسالة الفن غاليا حيث اتحد مع بعض الأمريكيين المتعصبين بمعاداة أمريكا ، ولم تجد السلطات هناك مفرا من طرده بعد أن ثارت بعض الجماهير عليه بفعل ما نشرته الصحف على لسان منتقديه .

واتجه شـابلن إلى سويسرا وظل هنـاك عشرين عـاما حتى عـام ١٩٧٣ واتجه إلى أمـريكا . ليبقى هنـاك حتى يوافيـه الأجل فى عام ١٩٧٧ ، وهـو فى كامل صحته وحيـويته ، حتى إن الأطبـاء قـالوا : إنه مات من الصـحة التى يبـدو أنها تدفقت فجأة بقـوة فكـانت أقوى من حجمـه الضئيل فمات محترقا بها .

□○□○□


عباس محمود العقاد
أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء

كان أبوه مجرد موظف متواضع بإدارة المحفوظات بمديرية أسوان . كان بالكاد يجد ما يعينه هو وأسرته على تكاليف المعيشة وأعباء الحياة ، وكان كل ما يتقاضاه هو ستة جنيهات فقط فى مطلع كل شهر ، ولم يكن له أى مورد آخر للرزق ، ومع ذلك فقد كان الرجل حريصا ، دقيقا ، ومتحفظا للدرجة التى كان يحسده عليها أقرانه لأنه يستطيع تدبير أمور معيشته ، وفى حدود راتبه الضعيف بشىء من الحكمة . أما أمه فقد كانت سيدة فاضلة طيبة القلب ليس لديها ما يشغلها عن رعاية أطفالها ، ومنحهم كل ما تملك من حب وحنان وأمومة .

بين أحضان هذه الأسرة ، وفى صعيد مصر الدافىء ولد المفكر والأديب العربى الكبير عباس محمود العقاد أحد عظماء عصره الذين أصبحوا أعلاما مضيئة فى سماء مصر والعرب والأمة الإسلامية جمعاء .

ومنذ اللحظة الأولى لميلاد العقاد فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٨٩ ، وعلامات النبوغ والذكاء تبدو عليه بوضوح ، وما أن بدأ ينمو ويكبر حتى أدرك أبواه أنه طفل موهوب ، ذو عقلية تفوق ما عليه أقرانه ، فهو حاد الذكاء ، شديد النظرات الفاحصة ، عميق التفكير ، قوى الإدراك .

وأمام ما أظهر الصغير من مواهب وقدرات قرر الأبوان إنفاق آخر مليم معهما حتى تتم رعاية الصغير على أفضل وجه ممكن ، رغم أن « العين بصيرة - كما يقولون - والأيد قصيرة » .

وشب صاحبنا ، معتداً بنفسه ، واثقا فى قدراته ، معجبا بقدراته ، فخ
بملكاته .

وفى الخامسة عشرة من عمره انتقلت أسرة العقاد إلى القاهرة . وكـ
العقاد لا يحمل حتى ذلك الوقت سوى البتدائية ، وبدلا من استكم
دراسته فضل الاكتفاء بهذا لقدر المتواضع وتعليم نفسه بنفسه حتى يـو
لأسرته ما يدفعونه له ، ولا يكون عبئا ثقيلا على مالية أبيه المتواضعة للغاية

وبدلا من أن يكمل العقاد تعليمه ، وبدلا من أن يلتحق بوظية
حكومية أخذ يتفرغ للقراءة والكتابة ، ويحاول أن يحيا مما تدره عليه ، وعا
منهما ولهما حتى غاية عمره .

والحقيقة أن العقاد كان موسوعة لا يمكن أن تتسع عدة كتب للحدي
عنها. وكان عبقرية لا يمكن أن تفيها الكلمات حقها . وقد شغل الناس
عصره عن عظماء كثيرين كان على الساحة معه ، حتى إنهم أحيانا لم يكو
يسمعوا سواه ، ولا يقرأوا نقدا لسواه .

كان العقاد مفكرا جادا ، وكاتبا متحفظا ، وأديبا ملتزما ، وناقدا متشد
جعل من قلمه قذيفة ضد كل من يحيد عن قيم الحق والعدل والجمال .

وقد فاقت شهرة العقاد كمفكر وناقد وكاتب شهدته كأديب وشاعر
ورغم أن عبقرياته الرائعة « كعبقرية محمد » و « عبقرية خالد » و « عبقر
عمر » وغيرها قد زاع صيتها أكثر من دواوينه إلا أن شعره كان رائعـ
غاية الروعة .

وقدم العقاد للمكتبة العربية ٨٥ كتابا فى الفن والأدب والعلم والمعارف
الإنسانية والإسلامية إضافة إلى دواوينه الرائعة « يقظة الصباح » و « وحي
الأربعين » و « أشجان الليل » و « أعاصير مغرب » .

وكما كانت أعمال العقاد النقدية علامة مضيئة فى سماء الأدب ، كانت أعماله الأدبية والشعرية أيضا بصمة واضحة على الساحة فكانت جيدة المضمون ، عظيمة الموضوع ، سليمة الرؤية ، متماسكة البنيان . كما كان أسلوبه متميزا قويا رصينا يذكرنا بالعرب الأقدمين .

ويمكن أيضا أن نلمس فى شعر العقاد أناشيد عذبة تفيض بالأحاسيس والمشاعر الصادقة التى تعبر عن وجدان صاحبها ، كما كانت تغلب عليه النزعة الروحية .

وقد أسس العقاد مع عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى مدرسة « الديوان » ، وهى إحدى تيارات التجديد فى الشعر العربى الحديث بعد ما وصل إليه حال الشعر من محاكاة وتقليد ، وتحولت عملية البعث والإحياء إلى استغراق شبه كامل فى السير على نهج القدماء رغم اختلاف البيئة والموضوعات .

وقد أقام العقاد صالونا أدبيا يُعقد كل يوم جمعه ، ويضم نجوم الفن والأدب والثقافة ويلقى فيه الجديد من الشعر ، وتناقش فيه مختلف القضايا الفكرية والسياسية والأدبية فى عصره .

وقد كان العقاد زعيما وطنيا ، ومناضلا سياسيا أيضا ، وقد وطد علاقته بسعد زغلول زعيم الأمة ، ومؤسسى حزب الوفد أعظم التنظيمات السياسية فى تاريخ مصر الذى لم يكن يضم سوى النبهاء ، والمثقفين من أبناء الأمة بغض النظر عن دراستهم أو تعليمهم ، فكان يضم كل جموع الشعب وكافة طوائفه .

وقد أسهم العقاد بكتاباته أيضا فى تحريك ثورة ١٩١٩ ، كما كان صديقا للزعيم الوطنى العظيم مصطفى النحاس وحارب من أجل الدستور .

ومن مواقف العقاد الوطنية الشهيرة جرأته فى مهاجمة الملك فؤاد وفضحه أمام الشعب وتحقير شأنه أمام سطوة المصريين البسطاء القادرين على إسقاطه ، وقال فيه العقاد قولته الشهيرة التى دخل بسببها السجن قرابة العام « إن شعبنا قادر على أكبر رأس يتعرض لحرياته » .

وقد دافع العقاد عن الإسلام دفاعا مجيدا فى مقالته وفى كتبه « حقائق الإسلام وأباطيله » ، « ما يقال عن الإسلام » و « مطلع النور » ، وقد حاول العقاد جاهدا صياغة أيديولوجية إسلامية يواجه بها المسلمون المذاهب والفلسفات الواردة من بيئات غير بيئاتنا ، وثقافات غير ثقافاتنا كالاشتراكية والرأسمالية .

وقد تناول العقاد قضايا جادة وطرق موضوعات ذات طبيعة حساسة وهاجم التخلف والركود وأوضح موقف الدين القيم من الإنسان والقدر والشيطان والعبادة والمرأة .

ومن أعمال العقاد الهادفة فى هذا الصدد « الإنسان فى القرآن » و « المرأة فى القرآن » و « الفلسفه القرآنية » و « الله » حيث طاف بأفكار البشرية القديمة والحديثة عن العقائد فألم بها وناقشها ، كما تجول بين الديانات السماوية حتى انتهى إلى الإسلام موضحا عقيدته فى عمق ودقة ، ومبينا ما فيه من سمو وصدق .

وللعقاد موقف من قضية الأخلاق التى لطالما شغل وعنى بها الفلاسفة والمفكرين على مر العصور وكان – رحمه الله – يرى أن الأخلاق تعتمد على الضمير الذى قوامه الصراحة والوفاء والإخاء والسلام .

كما كـان العقاد يرى أن الأخـــلاق لا تعنى « الأنانيـــة » ، وإنما تعنى « الغـــيرية » .

وهكـذا ظل العقاد حتى آخـر لحظة مـن حياتـه التى جعلها وقفـا على التحصيل والمعـرفة ، والكتابـة والتأليف والنقـد حتى اثرى حيـاتنا الفكـرية والثقافيـة فى كل لون ، وضرب ولعـل هذا هـو الذى دفع الفيلسـوف والمفكر الـراحـل العظيم الـدكتـور زكى نجيب محمـود إلى أن يُطلق عليــه « أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء » . أو قال عنه الأديب الراحل محمود عبد القادر المازنى « بحر بلا انتهاء » .

لقـد رحل العقاد فى الثـالث عشر من مارس عـام ألف وتسعمائة واثنين وستين ولكنه لا يزال حيا نهتدى به جيلا بعد جيل ، ورحل الرجل الذى كان عصـاميًّا فى حيـاته ، اعتمـد على جهده ، ولم يعتمـد على جهد غيره ، وكـان عصاميا فى ثقافته وأدبه وعلمـه ، فلم يعتمد على مدرسة أو جامعة وإنما علم نفسه بنفسه . لقـد كان الراحل أكثر من عظيـم ظهر فى عصر العظماء الكبار رغم أنه بدأ من تحت الصفر !!





غانـدى

لسان حال الضـمير الإنسانى

الحب بين الأفراد هو أكسير الحياة ، كما أنه وقود التقدم ، فأنا أعتقد أنى أصل إلى أقصى ذروتى بـانـدماج نفسى فى نفـوس الآخـرين ، وليس حبى لرفاقى متوقفاً على اتفاقهم معى أو اتباعهم لى ، إذ أنى بتسم لمن يعارضنى ، فعدم الولاء لآرائى هوَّة يسهل علىَّ عبورها بالمودة والحب .

هكـذا كتب« المهـاتما غانـدى» ذات يـوم عن فلسفته فى حيـاتـه والتى جعلت منه رمزاً للسمو الإنسانى فى أعلى صورة ، ونموذجاً للفكر المستنير فى أوج عظمته ، ومثالاً للحرب بالسلام فى قمة تأثيرها وفعاليتها .

غـانـدى هو زعيـم من نوع خـاص ، إنـه لم يلجأ إلى السـلاح ولم يطلق رصاصـة واحدة على أعدائه ، وإنما ابتـدع لنفسه ولوطـــنه إسلوباً فـريداً من نوعـه ، لم يألفه التاريخ من قبل ، إسلـوباً يعتمد على إلحاق الخير بـالآخرين بدلاً من الشر ، حتى ولو كـان الآخر هو العدو، ورغم عـدم تصور مثل هذه المعادلة الإنسانيـة الغريبة إلا أن غاندى طبقها بنجـاح ، وحرر بها ثانى أكبر شعوب العالم بعد الصين .. بلاده الهند.

يقـول غـانـــدى : «الحضـارة كما أعتقـد هى قبـول بل تشجيع أوجـه الاختلاف ، وبذا تصبح الحضارة تعبيراً مرادفاً للديمقراطية. فالشدة والعنف والضغط والإكـراه كلها على النقيض من الحضـارة والديمقـراطية ، والشـدة تولـد الخوف ، والخوف يخلق الرجـل الوضيع ، وقد حـاولت طول حيـاتى أن أُقصِىَ الخوف لأنى إذا خفت لم أعد حراً » .

وأعتقد أن الخـوف يلازم الغنى ، فقلب المـرء حيث توجد أمتعته الدنيوية ، ولست أقصد بالأمتعة الدنيوية المـال والعقـار فحسـب ، بل السلطة والصيت ، وحتى جسدى هذا ، وأني مهما قدرت لهذه من قيمة فلا أتردد فى التنازل عنها ثمناً لمبادئى ، والتهجم على مبادئى هو إذن كفيل بأن يجعلنى أرتد وأتذلل ، ولست ممن يعارضون الغنى ولكن من معارضى الغنى الذى يجعل المرء عبداً وليس لأى شىء أمتلكه أن يعترض أعمالى ، وإنى أصوم إذا كان ما أصوم من أجله أهم عندى من الحياة نفسها ، وأزهد لأن ما أزهد فيه يهبنى متعة مما أحصل عليها من وراء الزهد .

وعندما قُتِلَ غاندى فى اليوم الثلاثين من شهر يناير عام ألف وتسعمائة وأربعين ، وقف العالم كله حداداً على فقيد الإنسانية الذى كان ضميرها والمتحدث بلسانها ، وتحولت الهند إلى بؤرة صراع ، وأرض منازعات لاقِبَل للهنود بها ، حتى انقسمت على نفسها ، وتفتتت رقعتها وتحولت إلى دول وولايات.

ولكن من هو غاندى الذى لم يزل حديث العالم كله حتى الآن ، وكيف صعد الرجل من أقل نقطة سلم المجد ، حتى بلغ كل هذه الشهرة ، وكل هـذا الاحترام؟!

ولد «موهانداس .ك. غاندى» فى عام ألف وثمنمائه وتسعة وستين فى أسرة عادية متوسطة الحال لم تكن تطمع فى شىء إلا أن يكون الغلام قادراً على أن يعول نفسه بنفسه ، ولكنه كان أكثر اهتماماً بنفسه من أبويه، وأقوى عزيمة ، وأشد رغبة ، وأقصى ذكاء ،مما جعله يتفوق على أقرانه ، حتى أبناء الطبقات الغنية من أصحاب السلطان والنفوذ !

وقد كان غاندى أثناء دراسته محل إعجاب جميع أساتذته الذين استحسنوا خُلُقَه ، وأثنوا على علمه ، وأشادوا بقدرته الفذة على الحوار والإقناع وعرض وجهة نظره التى ربما كانت تختلف أحيانا مع آرائهم.

واستمر غاندى على هذه الحال حتى أصبح محامياً شاباً شديد الحجة ، قوى الإيمان بما يتولاه من قضايا ، مستميتاً فى دفاعه عن الفقراء والمساكين الذين لايجدون مايقدمونه لرجال القانون حتى يرفعوا عنهم الظلم ،ويردوا عن صدورهم عدوان المحتل الغاصب الذى لم يكن جنوده يتورعون عن إطلاق الرصاص على الهنود دون وازع من رحمة أو ضمير.

وفى ذلك الوقت بدأ الناس يلتفون حول غاندى الذى أخذ يظهر كزعيم من نوع خاص ، وقائد له فلسفة خاصة ، وأسلوب متفرد لم يألفه الناس من قبل ، فقد طرح غاندى فكرة «المقاومة السلمية» أو «المقاومة السلبية» كطريق لخلاص شعبه من الاحتلال البريطانى .

كما ابتدع غاندى إسلوباً رائعاً للمقاومة يمثل تعبيراً ذاتياً عن فلسفة حياتية جديدة فى تاريخ البشر تعتمد بالدرجة الأولى على قهر النفس والذات وعلى ممارسة سياسة «اللاعنف» .

ومما زاد من قناعة غاندى بهذه المقاومة السلبية هو عمله عقب تخرجه لفترة بجنوب أفريقيا حيث شهد أسوأ عملية إبادة بشرية وإنسانية فى التاريخ ، حيث رأى المستعمر الأبيض يقتل ، ويذبح ، ويسجن ، ويصلب السكان الأصليين من السود أصحاب الأرض ، وينهب ثرواتهم ، بينما هم يقاسون الجوع والبرد والمرض والقهر والظلم .

وقد انخرط غاندى بعض الوقت مع المقاومة السوداء هناك ، وقُبِضَ عليه أكثر من مرة ، وكاد يفقد حياته أكثر من مرة بسبب مناصرته للسود المظلومين ، ووقوفه إلى جانبهم ضد المستعمرين.

لقد كان غاندى فى حياته يقود ثورة المحرومين والمستضعفين على طريقته الخاصة ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها ، فقد حرض غاندى الهنود على مقاطعة المنتجات الإنجليزية مما جعل مصانع بريطانيا توشك على الإفلاس حيث إن الشعب الهندى كان يمثل المستهلك الرئيسى لهذه المنتجات .

كما حاول غاندى أن يفضح الاحتلال بعرض بشاعات ما يرتكبه جنوده من مذابح وحشية ، وعمليات إبادة جماعية ، وشتى صور القهر والظلم .

وما أن شعر البريطانيون بمدى ما يمثله غاندى لهم من خطر حتى أدركوا أن هذه المقاومة السلبية سلاح مؤثر يمكنه أن يقهرهم ، وأن هذه المقاومة التى كانوا يسخرون منها فى البداية قد بدأت تقلب عليهم العالم ، وتشعل فتيل ثورة لم يروا مثيلاً لها من قبل، ولم يألفونها فى بقية مستعمراتهم .

ومن هنا ، بدأ البريطانيون يضيقون الخناق حول غاندى ، وانتهى الأمر بإيداعه السجن هو وزوجته «كاسترى» لتشتعل نار الثورة فى الهند ، ويثور العالم كله من أجل هذا الزعيم الروحى الذى يحظى باحترام بالغ فى شتى أرجاء العمورة التى أصبح فيها علماً ونجماً ومفكراً ومصلحاً عظيماً .

وفى السجن يفقد غاندى زوجته «كاسترى» التى ماتت أثناء كفاحها معه بعد أن آمنت به كما فعل ملايين الهنود الذين وقفوا خلفه .

ويضطر البريطانيون لإطلق سراح غاندى أمام ثورة العالم كله ، ويواصل كفاحه ، ويضرب عن الطعام حتى يكاد يموت من أجل دعم قضيه بلاده ، وكجزء من المقاومة السلمية أو السلبية التى ابتدعها وحتى يحافظ على يقظة وحماس ونضال أبناء وطنه .

ويظل غاندى فى مقاومته هذه حتى يحصل لشعبه على ما يريد ، وينزل المستعمر على رغبة أصحاب الأرض ، ويمنحهم الاستقلال ، ليقرروا مصيرهم بأنفسهم .

وهكذا دخل التاريخ أحد العظماء الذين كرسوا حياتهم لحماية الإنسان من الظلم ، والقهر ، والبطش ، واعتمد لذلك أسلوباً لايعتمد على سفك الدماء ، أو إزهاق الأرواح ، وإنما على الحب وإقناع الآخر بجدوى السلام ، وفعالية نبذ العنف ، وقد عبر غاندى عن نفسه جيداً عندما قال:

« إنى رجل عادى خاضع لما فى من مواضع الضعف ، وإذا حق لى أن أتحدث عن نفسى فالفضل فى ذلك لتجاربى الناجحة فى الحياة فحياتى عمل ، وأعتقد أنه يجب على أن أطبق فيها ما أومن به ، ولقد حاولت أن استبعد الصراع بين ما أعتقد وما أقوله وما أفعله ، هذا هو الحق .. ولاأدعو إلى غير ما أعمل ، ونتيجة ذلك تكامل يتولد عنه انسجام فى داخلية نفسى ، وإذا واجهت شراً فلن أقف مكتوفاً أقلب كفاً على كفٍ معبراً عن أسف لاأشعر به كى أخلص بذلك نفسى من تأنيب ضميرى ، بل إنى أعد نفسى مسئولاً عما فى العالم من مساوئ إذ أنا لم أحاربها » .

□○□○□


أبو القاسم الشابى
شاعر التفاؤل والتشاؤم

لم تتنكـر الحياة لأحـد كما تنكـرت لـه ، ولم تتوال الخطـوب ، وتـداهم المصائب أحد فـرادى ومجتمعات كما كان الحال معه . إن حياتـه مأساة كبيرة انتهت بموت مفاجئ بسبب أمراض لم يفلح الأطباء فى السيطرة عليها ، وما بين البداية والنهايـة المبكرة لحياة هذا العبقرى الفذ هناك تـراث خالد خلود البشرية نسجت عبقريته خيوطـه ، قبل أن تودع الحياة فى الخامسة والعشرين من العمر الذى لم يكتب له أن يمتد أكثر من ذلك !!

إن حياة الأديب والشاعـر الوجدانى والفيلسوف المتأدب «أبـو القاسم الشابى» قصـة غريبـة غاية الغـرابة حول صـاحبها جميع الهـزائم إلى نصر مدوى ، وإنجاز هائل ، حتى رغم سنين عمره القليلة .

ورغم مالقيه هـذا الشاعر العظيم من مصائب ، وخطـوب ، ومتاعب ، وهموم لاقِبَل لشـاب فى مقتبل العمـر بها إلا أنـه حـول اليأس إلى أمل ، والتشاؤم إلى تفـاؤل ، وعندمـا وجد نفسـه على شفا السـقوط والاستسلام ، قاوم ، وصمـد ، واتخـذ قـراره بالبقاء والعمل دون أن ينظر إلى أيامه المعدودة فى الحيـاة .

إنـه من هؤلاء العبـاقرة القـلائل الـذين تمسكوا بـالحياة وابتسمـوا لها ، وتغنوا بها ، حتى إنه أطلق على ديوانه الذى ضمن فيه كل ما كتبه من أشعار «أغانى الحياة » .

ولكن وطأة المرض وسجن الفـراش ، والإحسـاس بـدنـو الأجـل كـان يقتحم عليـه تفاءلـه من وقت لآخـر ليتمنى الموت حتى يتخلص من آلامـه

وأحزانه ،لقد كانت حياة أبى القاسم الشابى تتأرجح بين الحياة والموت. التفاؤل والتشاؤم.. الأمل واليأس.. الحب والكراهية.. اللذة والألم. السعادة والتعاسة.

ووسط كل هذه الصراعات النفسية ، والمعاناة الجسدية التى تولدت عن مرض القلب اللعين ثم الرئة ، عاش أبو القاسم - ورغم ذلك - لم يحرم الإنسانية من شريان حيوى يمدها بأحد موارد الشعر الروحانى السامى.

وعندما نلقى نظرة سريعة على حياة هذا الشاعر العظيم ، نجده إنساناً عادياً من حيث النشأة حيث ولد فى قرية «الشابية» إحدى ضواحى بلد «توزر» بتونس فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٠٩ .

وكان أبوه من خريجى الأزهر الشريف ، فاهتم بتحفيظه القرآن وتعليمه اللغة العربية ، والتحق بجامعة الزيتونة وتخرج من كلية الحقوق عام ١٩٢٩ بعد أن كون لنفسه ثقافة عظيمة من خلال إطلاعه الواسع .

وفى مطلع عام ١٩٣٣ ، بعد تخرجه بأربعة أعوام فقط نشر أبو القاسم قصيدة لأول مرة بمجلة «أبو للو» فى مصر عنوانها «صلوات فى هيكل الحب» التى كانت بمثابة ثورة فى عالم الشعر ، وإيذاناً بإنضمام شاعر عظيم إلى الذين سيخلدهم التاريخ من شعراء العربية المبدعين.

ففى هذه القصيدة الرائعة أو «الصلوات» قصة حب عنيفة عاشها الشاعر ، وخرج منها بمأساة أخرى تضاف إلى سجل حياته الحافل بالمآسى فقد فقدها كما فقد أبيه وكما فقد ذويه وكما فقد صحته .

فى هذه القصيدة قصة الحب التى عاشها بكل جوارحه مع محبوبته التى لم يكن ينظر إليها كما ينظر غيره من الرجال إلى محبوباتهم ، وإنما كان يراها

هيكلاً للعبادة أو محراباً للنور والطهر والعفاف ، أو كعبة لسدنة الفن ، ولكن الموت اختطف حبيبته فبكى ورتل أناشيده العاطفية الحزينة فى لحن شجى وكلمات مؤثرة.. انظر إليه يقول :

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام
كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء
كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال
وشباب منعم أملود![1]
يالها من طهارة ، تبعث التقديس
فى مهجة الشقى العنيد !
يالها من رقة تكاد يرف الورد
منها فى الصخرة الجلمود ![2]

ويمضى أبو القاسم مصورا مدى ما كانت حبيبته تمثله له فى حياته المليئة بالكآبة والحزن والأسى فيقول :

أنت تحيين فى فؤادى ما قد
مات فى أمسى السعيد الفقيد
وتشيدين فى خرائب روحى
ما تلاشى فى عهدى المجدود[3]

---

(١) أملود : ناعم .

(٢) الجلمود : الشديد الصلابة .

(١) المجدود : المنعم .

مــن طمـــــوح إلى الجمال إلى الفــن

إلى ذلـك الفضـــــاء البعيـــــد

وتبثين رقـــة الشـــوق ، والأحـــلام

والشــــدو ، والهوى ، فى نشيـــدى[1]

بعـــد أن عـــانقت كـــآبـــة أيـــامى

فـــؤادى ، والجمت تغـــريـــدى[2]

أنتِ أنشــــودةُ الأنـــاشيــد غنـــاك

إلـــــه الغنــــاء ، رب القصيـــــد

فيكِ شب الشبـاب ، وشحـه السحـر

وشــــدو الهوى ، وعطــر الـــورود[3]

وينقل أبو القاسم لمحبوبته إحساسه بالموت ، وشعوره بالفناء فيقول فى نهاية القصيدة :

إنقـــذينى من الأسى ، فلقـــد أمسيتُ

لا أستطيع حمل وجــــــــــودِى

فى شعـــاب الـــزمـــان والموت أمشى

تحت عبء الحيـــــاة جم القيــــودِ

وأمـــاشى الـــورى ونفسى كـــالقبر

وقلبى كـــــالعـــــالم المهـــــدودِ

ظلمـــــة مـــا لها ختـــــام ، وهـــول

شـــائع فى سكـــــونها الممـــــدودِ

---

(١) الشدو : الغناء .

(٢) الجمتى : كبلت وقيدت .

(٣)وشحه : زينه .

وقد عبر أبو القاسم فى قصائده الوطنية والغزلية والفلسفية التى يحملها ديوانه عن حياته المليئة بالكفاح والشقاء والألم ، والعامرة بالأحزان ، والحرمان ، والمغمورة بالكآبة والأسى حيث توفى والده وهو صغير ، ثم ماتت الفتاة التى أحبها ، ولم يوفق حتى فى حياته الزوجية ، ثم أُصيب بمرض تضخم القلب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو لتوه يتفتح للحياة .

يقول أبو القاسم فى قصيدته المشهورة « إرادة الشعب » التى يحفظ الملايين من العرب مطلعها :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليلِ أن ينجلى
ولابد للقيدِ أن ينكسر

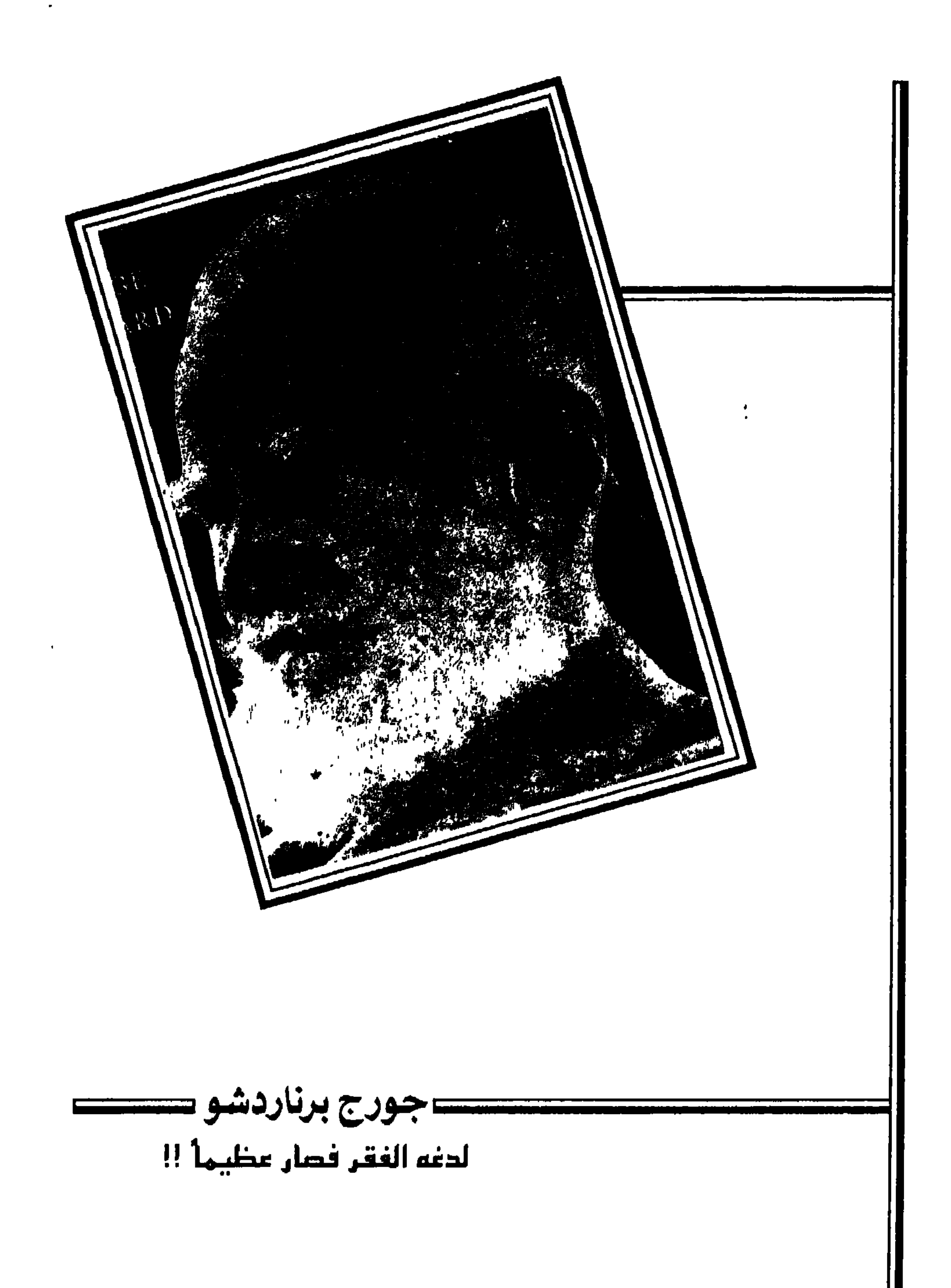
وقد كان أبو القاسم أيضا مجددا جريئا ، صاحب دعوة تقدمية كبيرة فى الأدب الحديث . كان يريد أن يكون الصدق هو الركيزه الأساسية فى القصيدة وأن تكون الوحدة العضوية ، ووحدة الموضوع والجو النفسى أهم من الجرص المفرط على شكل القصيدة على حساب هذه الوحدة .

ومن أهم أقوال هذا الشاعر العظيم التى تصور موقفه واتجاهه :

« إذا قرأنا لشاعر وجدنا فيه إنسانا من لحم ودم ، يحيا ويتنفس ، يشعر ويفكر ، ويتجاوب معنا بالعاطفة والأحاسيس والخيال ، ينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومحقراته - إذا وجدنا هذا الشاعر فلنقرأه فى ثقة وإيمان .. فإنه الشاعر حقاً » .. رحم الله أبا القاسم .

□○□○□





جورج برناردشو

لدغه الفقر فصار عظيماً !!

هذا أحد العظماء الذين لدغهم عقرب الفقر ، وبث فيهم سمه القاتل ، ولكنهم استطاعوا أن يتجاوزوا المحنة ، وينطلقوا إلى آفاق المعرفة ، ويرتادوا طرقا جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، ليخرجوا فى النهاية إلى العالم بنتاج بشرى عملاق ، لا يصدر إلا عن عبقرى فذ لا تكبله ليالى الجوع أو سنوات الشقاء والعوز والحاجة .

كان « جورج برناردشو » واحد من القلائل الذين يأتون إلى الحياة لكى يسبقوا عصرهم ، كانت أفكاره السياسية والاجتماعية تلقى الضوء على مشكلات مزمنة فى المجتمع الإنجليزى والأوربى والعالمى ، وتتنبأ بها سيأتى بعد وما يتعين عمله .

لقد عاش شو فيما بين عامى ١٨٥٦ - ١٩٥٠ تلك الحقبة التى كانت تتفجر بالاتجاهات والأيديولوجيات المختلفة ، وكانت تمتلىء بالانتصارات العلمية ، والحروب الاستعمارية ، والتزمت الدينى فى أوربا ، مع وجود أصوات قوية تنادى بالتحرر مَن التقاليد وسلطان رجال الدين .

كما كان العصر الذى ظهر فيه شو هو عصر تحرير المرأة ، ومطالبتها المساواة بالرجل ، كما شهد العصر حربين عالميتين جعلت الناس فى كل مكان يرتجفون بشدة .

فى هذا العصر ولد شو بمدينة دبلن بأيرلندا فى أسرة فقيرة تجمع كل المتناقضات ، وتحيا فى جو غير مستقر لا يبعث الأمان فى قلب الصغير .

وفى الوقت الذى لم يعبأ أبوه باحتياجات أسرته الفقيرة الأساسية ، وراح يشرب الخمر ، ويمارس أسوأ العادات القبيحة ، كانت أمه على النقيض تماما

فقد كانت عاشقة للموسيقى ، دمثة الخُلُق ، مرهفة الحس ، رقيقة المشاعر .

ويقول شو : إن طفولته الأولى كانت بالنسبة له بلا معنى ، وبلا فائدة ، حيث إنه لم يتعلم فيها شيئا ، حتى إنه لم يعرف القراءة إلا فى سن متأخرة نسبيا عن أقرانه .

وبينما كان شو يمارس أعمالا كثيرة لكى يحصل على قوت يومه ، بينما يذهب أقرانه من أبناء الطبقات المقتدرة إلى المدارس والجامعات ، كان يلتهم كل ما يأتى فى طريقه أى أن ثقافته الحقيقية كانت ثمرة لمطالعاته الاختيارية ؛ كما أخذ ينمى مواهبه الموسيقية ، وعشقه لهذا الفن الذى ورثه عن أمه .

وفى سن الرابعة عشرة عمل شو كاتبا لدى سمسار عقارات فى دبلن ؛ ولكن العمل كان مرهقا ، وصاحبه كان رجلا فظ ، غليظ القلب ، متحجر المشاعر يريده للعمل طوال الليل والنهار دون عائد مجز يكفى حتى لالتهام ما يعينه على عمله الذى كان أيضا يتطلب السير لمسافات طويلة للغاية ، وهكذا عجز شو عن الاستمرار كصبى عقارات - كما يقول - فانتقل إلى لندن .

وامتدادا لسنوات الشقاء والكفاح فى خضم الحياة التى وجد شو نفسه فيها ، قضى تسع سنوات فى فاقه وعسر ، وحاول جاهدا أن يعمل ناقدا موسيقيا فلم يفلح ، كتب عدة كتب مدرسيه وقصص للأطفال رفضها الناشرون دون سبب أو مبرر مقنع .

وعمل شو فى شركة كهربائية ، وأيضا لم يستمر ، وحاول رفاقه انتشاله من الجوع والتشرد ، وإعانته على مواجهة نفقات الحياة الصعبة فى لندن .. حاولوا الحصول على عمل شريفا له ، وأيضا لم يفلحوا ، وربما كان يقيه من

الجـوع من وقت لآخر تلك النقـود القليلـة التى قد تبعث إليه بهـا أمه إذا ما قامت بتدريس الموسيقى لأحد الهواة بالصدفة .

وهـنا بـدأت قصـص شو تـرى النور ، وخاصة قصصـه الخمس الأولى « المراهقـة » و « العقـدة السخيفة » و « حـب الفنانين » و « مهنـة كاشـل بيرون » و « الاشتراكى غير الاجتماعى » ، ومع ذلك فقـد كانت قصـة « مهنة كاشل بيرون » هى بـدايته الحقيقية ، حيث طلب منه أحـد من تَعَرَّفْ عليهم من مخرجى المسرح تحويلها لمسرحية فحـولها شو إلى هزليـة شعريـة بعنـوان « الوفاء الضائع » .

وما هى إلا فترة قصيرة حتى وجد شـو ضالته المفقودة فى المسرح ، ومن هنا بـدأ كتابة أعماله العظيمـة التى جعلته بشهادة جميع النقـاد أعظم كُتَّاب المسرح الإنجليزى بعد وليام شكسبير .

وبدأ الحظ يبتسم أيضا لشو عندما عمل بالصحافة وكان يقدم للكتب الجديدة بمجلة « بول مول » والصـور لمجـلة « العـالم » ، والموسيقـى لمجـلة « ستار » ، والمسرح لمجلة « سترداى رفيو » .

وقد كانت كتـابات شو كالـرصاص على رءوس المتحذلقين والمتأدبين ، ومحترفى الأدب الردىء ، كما كـان ناقدا موسيقيـا عظيما جعل للنقد الموسيقى فى عصره شأنـا عظيما ، حيث قـرب أيضـا الموسيقى إلى الأفهـام وجعلهـا فى متناول قطاعات عريضة من الجماهير .

وهجـا شـو مشاهير المسرح والموسيقى فى عصره ودافع ومـدح مشـاهير آخرين رأى أنهم يقـدمون قيمـة فنية سـامية ، ويطـرحون على النـاس أفكارا إصلاحيـه من شأنها أن تساهم فى إيجاد حلول لمشكلاتهم ، وإزاحـة ما يثقل على أنفسهم من هموم ومتاعب .

ولأول مرة يتقبل الإنجليـز نقدا لاذعا للكـاتب العظيم وليام شكسبير ، وربما لو لم يكتبه شو المحترم بين أوساط المثقفين لما تركوه يفعل ذلك .

واكتشف شـو فى نفسـه فن الخطـابة ، فكـان يخطب فى النـاس مهـاجماً الأحكـام العرفيـة التى كانت تُفـرض عليهم من وقت لآخر ، ويحاول إفهـام الناس لحقيقتها .

والحقيقه أن شو كان عظيما فى فنه ، كان مسرحه عبارة عن درس تعليمى وتثقيفى للناس ، فتـارة ينصحهم بعد الاستسلام لمافيا الانتخـابات ، ويحاول أن يبين لهم من خـلال مسرحه ، كيف سيحـاول المرشحون خـداعهم ، لكى يحصلوا على أصواتهم .

ومن مسرحيات شو التى لاقت نجاحـا ساحقا على المسرح « اندروكليز والأسـد » ، و « بجماليون » ، و « منزل القلوب الكسـيرة » و « العـودة إلى متوشالح » و « تلميذ الشيطان » و « الميجـور باربرا » و « بيوت الأرامل » و « الإنسان والإنسان الأعلى » .

وبعـد ما كـان يلهث شو وراء لقمـة العيش ويصارع الحيـاة ، ويكابـد متـاعبها ، أخـذت الأموال تطـارده ، ومع ذلك كان شـو ينتمى بعقيدتـه إلى الاشتراكيـة الفابيـة التى خـرجت من الطبقـات الدنيـا التى لا تعـرف معنى للحياة لما تعانيه من فقر وحرمان ، وإحساس بالضآلة والهوان .

ويظل شـو على حالـه هـذا حتى يحصل على جائزة نـوبل فى الآداب فى عام ١٩٢٥ ، وكان قدرها وقتذاك ٧٠٠٠ جنيه استرلينى وهى تعادل الآن ما يزيـد عن مليون دولار ، وقد رفض شـو قبول الجائزة المالية فى البدايـة إلا أنه تسلمها بعد فترة ، ليقـدمها هدية للهيئـة السويدية الإنجليـزية لنشر الأدب السويدى فى البلاد الناطقة بالإنجليزية .

وبعد نوبل اتجه شو إلى الكتابة السياسية والاجتماعية وقدم عشرات الكتب مثل « دليل المرأة الذكية فى الاشتراكية والرأسمالية والماركسية والبلشفية » ، « ما كتبته عن الحرب حقيقة » ، « أوهام الأطباء - إجرام لم ينضج وتعليم خادع » و « مستشفى المجاذيب السياسيين أمريكا وإنجلترا » ، و « الدليل السياسى لكل إنسان » .

وظل شو يكتب إلى ما بعد الستين ، فقد كانت الكتابة هى كل حياته ، وقد كان شديد الحفاظ على صحته ، فمثلا كان نباتيا لا يأكل اللحم ، كما أنه لم يدخن أو يتعاط الخمور ، وهو يقول فى ذلك : « اعتقد أن الإنسان الذى يقتات بالأجسام الميتة والويسكى لا يستطيع أن ينتج خير ما فى مقدوره » .

ويقول شو العظيم مقبحا عادة التدخين اللعينة : « تحقق لى قبل أن أخرج من دور المراهقة أن من السخف أن ندفع أجرا لمن ينظف لنا مداخن المدفئات فى الوقت الذى نملأ غرفنا بالأدخنة القذرة الصادرة عن أحد الأعشاب الكريهة » .

ويُعتبر شو من العظماء القليلين الذين امتازوا بخفة الظل ، وروح الدعابة اللا محدودة التى لم تفارقه حتى وافته المنية فى عام ١٩٥٠ .

□○□○□



نجيب محفوظ

من الحارة إلى نوبل !

فى ليلة من ليالى الشتاء البـاردة ، وفى إحدى الحارات بحى الجمالية فى قلب القـاهرة القديمـة ، انبعثت من أحـد المنازل الصغيرة صرخـات سيدة تعثرت ولادتها . حـاولت « الداية » قـدر جهدهـا إخراج الجنين ولكن دون جدوى ، حتـى اضطرت إلى نصح الأب باستـدعاء الطبيب ، الـذى وصل بعد لحظات ، وكان اسمه نجيب محفوظ .

وتمت عملية الولادة ، وخرج الصغير إلى حيث الحيـاة ، وحلت صرخاته محل تلك التى كان تصدر عن أمـه ، وعرفانا بفضل الطبيب الماهـر ، وامتنانا لـه ، واستبشارا بـه ، قـرر الأب أن يطلق اسمـه على وليـده ، فصار اسمـه « نجيب محفوظ » وظل حتى يومنا هذا .

ومنذ اليوم الحادى عشر من ديسمبر عـام ألف وتسعمائة وإحدى عشر والجنين الذى تعثرت خطـواته الأولى فى الحياة ، يسرع الخطى نحـو ما ينتظره من مجد وفخار ، وكان أول المشوار هو حارته الصغيرة التى نشأ فى أحضانها .

فـالحارة هى عالم نجيب محفـوظ الأديب المصرى والعالمى الكبير سـواء حملت هذه الحارة اسما كما هو فى أعماله الأولى « أولاد حارتنا » و «الحرافيش» و « السـكرية » و « بين القصرين » ، « قصر الشـوق » ، « زقاق المـدق » أو جاءت بلا اسم كما هى فى أعماله الأخيرة .

لقـد قضى نجيب محفـوظ سنـوات عمـره الثـلاث عشرة الأولى فى حى الجمالية الـذى ترك أثـرا كبيرا عليه وشكل وجـدانه ، وكـان دوما منبـع إلهامه الذى جعله يبـدع فى تصوير الأماكن التى تقع فيها أحـداث رواياته ، ويبرع

فى رسم شخصياته بكل ما تجمعه من نماذج بشرية مختلفة ، وعلاقات إنسانية متباينة كما هو الحال فى روايتى « أولاد حارتنا » و « الحرافيش » .

ويؤكـد نجيب محفوظ فى أكثر من منـاسبة أن تقدم العمـر من شأنه أن يؤكد للإنسان أن أصله هو الحقيقـة الباقية فى هذا العالم الغريب . إن العودة إلى الطفولـة مع تقدم سنى العمر ، هى عودة إلى الأمـان المفقود ، الحارة هى ملاذ وملجأ نجيب محفوظ الدائم .

فمنذ أن أخذ نجيب محفوظ يشـب عن الطوق ، وهو يحاول التعرف على حارتـه الصغيرة ، والحى القديم الذى تقبع فيه حيث رائحـة التاريخ ، وعبق الماضى ، حيث المآذن القـريبـة ، والمســاجـد العتيقـة ، كـالأزهـر والحسين والغورى والأقمر وبرقوق .

منذ ذلك الـوقت ونجيب محفوظ يختزن فى خيـاله كل صغيرة وكبيرة عن حيه : مـا يحويه من أناس ومـا يضمه من أمـاكن تضرب فى أعماق التاريخ ، وعندما كبر الغلام ، وحاول أن يسترجع فى روايـاته ، ما ألم به من قبل ، برع فى تصـويـر « المحلية » وأبـدع فى نقلهـا حتى وصل بها إلى « العـالميـة » حيث أصبحت تـراثـا إنسـانيـا قـريـب من وجـدان كل البشر ، وفى شتى أنحـاء المعمـــورة .

ولم تكن سنوات محفوظ الثلاث عشرة فى الجمالية ثم انتقاله إلى العباسية هى فقط التى أثـرت فيه ؛ وإنما كانت هنـاك أسرته التى كـانت تغلب عليها النزعـة الدينية وأمـــه التى كـانت تصحبه إلى أماكن أثـرية وتـاريخية تلهب مخيلته ، وتستثير وجدانه ، وتستدعى قدراته ومواهبه الفطرية .

كما شهد محفوظ وهو طالب بالمدرسة ثورة ١٩١٩ ، والمظاهرات ضد المحتل الغاصب ، وسقوط الشهداء برصاص الجنود الإنجليز ، ودراسة القانون ؛ وبعد ذلك الأحداث التى داهمت مصر والعالم العربى من حروب وثورات وانقلابات وأحداث وخطوب شتى .

ومن عوامل التكوين الفكرى لنجيب محفوظ قراءاته الأولى المترجمة (سير والتر سكوت ، وسير هنرى رايدر هيجارد) ، وكيف كان يعيد كتابة القصة التى يقرأها مع إضافة بعض التفاصيل من حياته الخاصة ، ثم قراءاته للمنفلوطى وطه حسين والعقاد ويحى حقى والحكيم ومحمد حسين هيكل ، وسلامة موسى .

ولسلامة موسى مكانة خاصة لدى محفوظ ، فهو الذى نشر له أول مقالة له بمجلة « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها فى الثلاثينات ، كما نشر له سلامه موسى أولى رواياته « عبث الأقدار » .

ولم يقف نجيب محفوظ عند هذا الحد من القراءة ؛ بل عاد إلى الأدب العربى القديم يغترف منه ثم اتجه إلى الفلسفة ، والأدب العالمى فقرأ « لتولستوى » و « بريخت » و « توماس مان » ، وغيرهم ممن ظهر أثرهم جليا فى أعماله ، حيث تأثر ببعض أفكارهم ، واتجاهاتهم .

وربما لا يعرف البعض أن روايات محفوظ التى بدأ بها حياته كانت « فرعونية » تتحدث عن التاريخ الفرعونى القديم مثل « عبث الأقدار » ، « رادوبيس » و « كفاح طيبة » .

ولكن ما أن جاء عام ١٩١٧ حتى بدأ الأديب الكبير فى كتابة « ثلاثيته الخالدة » ، التى صور فيها ما يدور فى مصر من حياة سياسية واجتماعية

واقتصادية خلال الفترة من ١٩١٧ مرورا بـ ١٩١٩ ، وحتى عام ١٩٤٤ أى أن الثلاثية « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، و « السكرية » تبدأ فى منتصف الحرب الأولى وتنتهى مع نهاية الحرب الثانية .

ثم كتب نجيب محفوظ روائعة « اللص والكلاب » ، « السمان والخريف » ، « الطريق » ، « الشحاذ » ، « ثرثرة فوق النيل » ، « ميرامار » ، « الكرنك » ، « قلب الليل » ، « أفراح القبة » .

ولم يكن الأديب العظيم مجرد روائى فذ وإنما لو لم يكتب الرواية واكتفى بما قدمه من قصص قصيرة لكان أيضا دخل تاريخ الأدب العربى بجدارة ، فله حوالى مائتى قصة قصيرة موزعة على أربعة عشرة مجموعة قصصية فى الوقت الذى كتب فيه ٣٣ رواية معظمها أعمال رائعة سواء من ناحية الشكل أو المضمون والرؤية .

وقد شهد العالم كله ببراعة نجيب محفوظ فى فن الرواية والقصة القصيرة ، وعاش معه عوالم مختلفة تضم الشرفاء والمجاهدين ، والخونة والمتآمرين والخارجين على القانون والمتمردين على حياتهم وطبقاتهم ، وأولاد الذوات ، وأولاد الفقراء ، لقد صور محفوظ نماذج مختلفة من البشر بمنتهى الدقة والروعة والجمال .

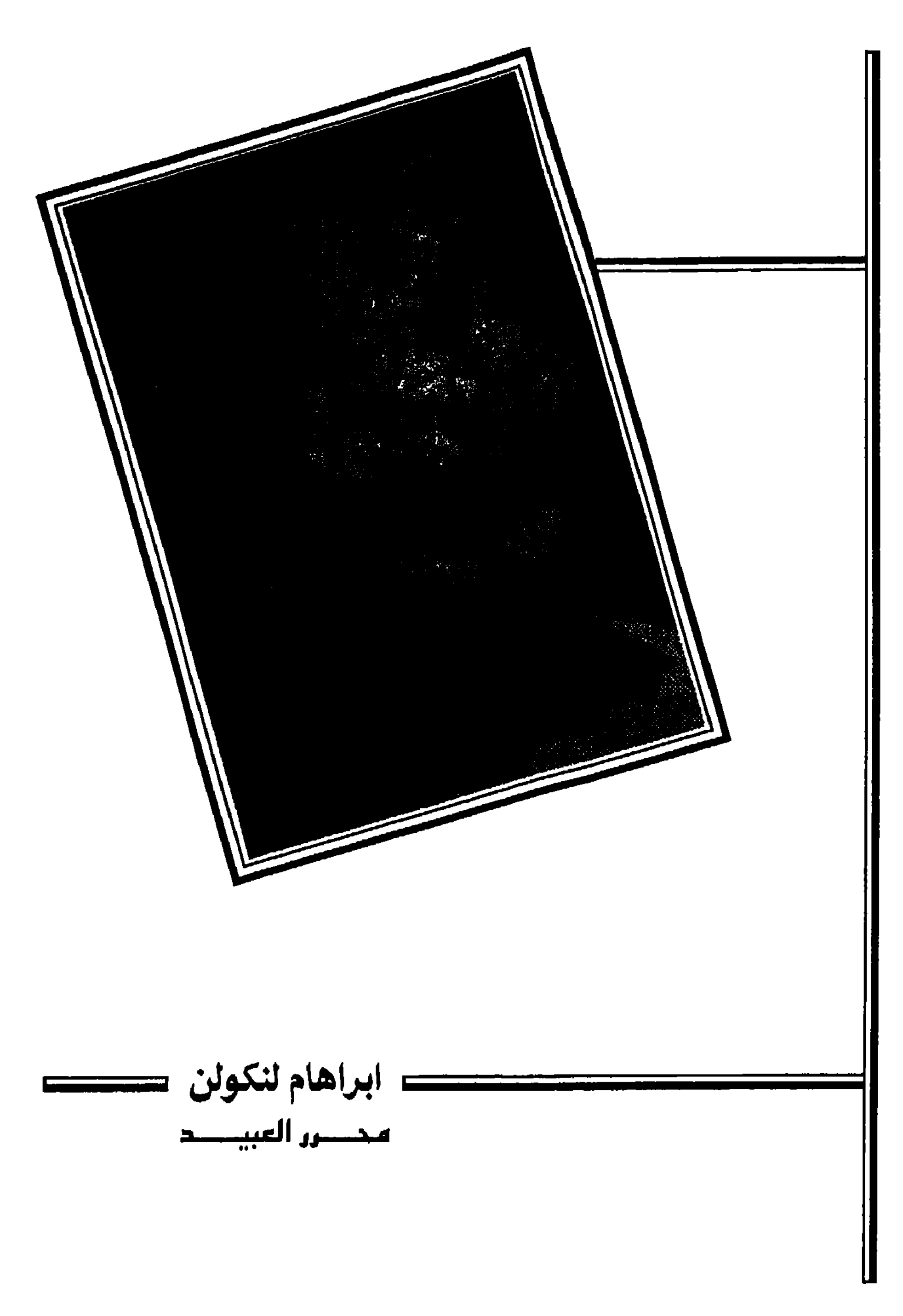
ورغم حصول الأديب العملاق على جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨ ، إلا أن إعلانه فائزا بهذا التقدير العالمى جاء متأخرا عن موعده ، فأعمال محفوظ التى استحق عنها الجائزة بجدارة موجودة ومترجمة للغات عالمية عدة منذ أكثر من ثلاثين عاما ، إذن فمنحه الجائزة كان بمثابة اكتشاف جديد لواقع قديم .

ويبدو أن هـذا هو الأمر الذى حد من سعادة وغبطة محفـوظ بالجائزة ، حتى إنـه قال : « إننـا لا يعنينا نـوبل ولا غير نوبل » . وقـال : « لو جـاءت نـوبل مبكـرا فى صدر الشبـاب أو بعـد ذلك بقليل لـربما كـانت ذات طعم ومزاق آخرين ولكن فى نهاية العمر لا تعنى مثل الشىء » .

وكم كان محفـوظ عظيما عندما قال – عقب إعـلان فوزه بالجائزة : « إنها أخطأت قمم عـربية كبيرة سواء أدبيـة أو فكريـة سبقته أمثـال عميد الأدب العـربى الراحل الـدكتـور « طه حسين » ، والمفكـر الكبير الراحـل « عبـاس محمود العقاد » ... وغيرهم » .

هذا هو نجيب محفوظ الذى ولد ونشأ فى أحضان الحارة المصرية ثم بلغ أعظم مـا يمكن أن يصـل إليـه أديب فى العـالم ، لقـد أطفـأ نجيب محفـوظ الشمعة رقم ٨٢ فى حيـاته فى ديسمـبر ١٩٩٣ ، ولكـن هذه الشموع الـ ٨٢ ليست كل مـا أضاء بـه حياتنـا من شـموع ، فأعمالـه العظيمة ، بـاقية أبـدا وضاءة ، متـوهجة فى وجدان الشعب المصرى والعـربى والعالمى ، فقـد حفر هذا الأديب . الفذ بأدبه صورة خالدة لمسيرة شعبه منذ أوائل هذا القرن فأرخ الأدب ... أو أدب التاريخ ، وجعل أدبه صورة نـاطقة ، ومرآه عاكســة لكل ما يـدور فى مجتمعــه حـتى أبـدع فى تصـــوير « المحلية » ووصـل بهــا إلى « العالمية » لكى يتـأثر بها ، وينفعل معها ، كل قارىء فى أى مكـان بالعالم ، وهذه عظمة نجيب محفوظ !.





ابراهام لنكولن

محـــرر العبيـــد

عنـدما وصل المحـامى المبتـدىء الطويـل القامـة ابـراهام لنكـولن إلى سبرنجفيلد ، عاصمة ولاية إلينوى الأمـريكية ، كان لا يملك سوى أصابع يده ، وكيسين من القماش بهما آخـر ما تبقى من ملابسـه ، التى لم تكن سوى سروال أكل عليـه الـدهر وشرب ، وقميص بـالكـاد تستطيع أن تميـز لونـه الباهت الممسوح من كثرة الاستعمال ، وجاكيت سىء المنظر يقيه برد الشتاء القارس .

كان لنكولن عند وصوله من قريته المتواضعة القريبة من المدينة واسمها « نيوسيلم » فى غـاية البؤس ، غـارقاً فى ديـونه حتى أذنيه ، ولم يكن معـه أية نقود يمكن أن يسكن بها أحد المنازل ، حتى الحصـان الذى جاء المدينة على ظهره كان قد استعاره على سبيل الأمانة .

وحتى لا يهيم لنكـولن على وجهـه فى الشـوارع ليـلا ونهارا ، أو يضطـر للعودة من حيث أتى ، عـرض عليه أحد أصحاب المتـاجر أن يشاركه غـرفة نومـه القابعـة أعلى المتجر بعد مـا أحس بمدى نقاء سريـرة صاحبنـا ، وكرم خلقه ، ونبل مقصده .

وبدت الحيـــاة صعبـة أمام الشـاب الوســيم الذى كـان يستطيع أن يجعـــل مستمعيه يستمـرون فى أمـاكنهم بـلا حـراك من حلاوة حـديثـه ، وعذوبـة كلماته .

فى البداية ، بدأ يزاول لنكولن أية أعمال يرتزق منها ، كما اشتغل بالأرض كى يجد ما يسـد به رمقه ؛ ولكن وبعـد دراسة مستفيضة وواسعة فى القـانون

أصبح لنكولن شريكا أصغر لأحد المحامين الكبار ، وكان لنكولن بالنسبة لشريكه فى البداية ضئيل الشأن ؛ حتى أثبت مواهب وقدرات لم يألفها الناس من قبل ، كما كان يتمتع بصفه خاصة بقوة تأثير طاغية يمكنها تغيير أى اتجاه ، أو تقويم رأى ، أو تعديل سلوك .

ورغم الصعوبة التى وجدها لنكولن فى البداية فى سبرنجفيلد والإحساس الذى كان علية القوم هناك يصدرونه إليه دائما بأنه يفتقد الميزات التى يكفلها الانتساب إلى أسرة عريقة والاختلاط با لمجتمع .

ولكن وبالنظر إلى الجرح العميق الذى خلفته هذه التفرقة المميتة فى نفس لنكولن ، إلا أنه كان دوما يفتخر بأنه ابن لأبوين فقيرين غير متعلمين ولكنهما مستقيمان يخشيان الله .

وقد أحب لنكولن فى تلك الفترة فتاة ارستقراطية تدعى « مارى تود » ، وأخذ يتردد على الأسرة ، ويخرج معها حتى أفضى كل منهما إلى صاحبه بحب طاغ للآخر يملأ عليه كل حياته .

وفى أواخر عام ١٩٤٠ تمت الخطبة وتوج الحب ملكا على عرش المحبين ، ولكنه حب لا يخلو من أزمات عاطفية ، ومشكلات عائلية بسبب معارضة والديها لزواجها من لنكولن المتواضع .

وقد جدد هذا الفشل الجراح ، وأثار ذكريات مريرة كان يحاول لنكولن نسيانها ، فقد جعله يشعر بنقصه الاجتماعى ، والفقر الذى يلازمه كظله ، وتواضع نشأته التى يعاقبه عليها مجتمع ظالم ، ولك أن تعرف أن لنكولن نفسه هو الذى طلب فسخ الخطبة حفظا لماء وجهه ، وحفاظا على كرامته ، وانفصل الحبيبان فترة من الوقت ؛ ولكن سرعان ما جمعهما الحب من جديد

الذى كان أقوى منهما وقررا الزواج ، بل وذهبا إلى القيس وحددا اليوم وثارت أسرة مارى ، وشنت حربا لا هوادة فيها ضد لنكولن الفقير ، ولكن القدر كان له الحكم الأخير وتوجت قصة الحب فعلا بالزواج الذى استمر حتى نهاية العمر .

وقد ساعد زواج لنكولن على استقراره النفسى ، واهتمامه بعمله ، وتركيزه فى مشاركته السياسية والاجتماعية فى « سبرنجفيلد » حتى تم اختياره عضوا بالمجلس التشريعى بالولاية ومنذ ذلك اليوم علاقدره ، وبزغ نجمه ، وقد ساعد على ذلك اختياره قضية خطيرة كأهم موضوع فى حياته ، وأكبر الأهداف التى يسعى نحو تحقيقها ، هذه القضية هى « الرق » .

ويمكن القول إن موضوع « الرق » أو تجارة العبيد والتفرقة المهينة بين السادة والعبيد كانت هى بداية الطريق الذى سار بصاحبه إلى العظمه والمجد والخلود .

لقد كان للنكولن صولات وجولات وخطب ، ومقالات واجتماعات ونداءات للقضاء على الرق وتحقيق المساواة ، ورفع شعار « لا سيد ولا عبيد كلنا سواسية » ، وقد لاقى لنكولن حربا ضارية شنها ضده الإقطاعيون الذين يجنون الثروات من تشغيل العبيد الذين قاموا بشرائهم هم ومن سيأتى من نسلهم ، كما تعرض ذات مرة لمحاولة اغتيال بسبب إصراره على القضاء على العبودية .

وقد كان لنكولن خطيبا مفوها ، وسياسيا لبقا ، ومفكرا واعيا ، ورجل إصلاح أمينا ، وفى عام ١٨٥٨ رشح لنكولن نفسه لمجلس الشيوخ الأمريكى .

وكانت حملة لنكولن الانتخابية كلها ثورة على نظام العبيد ، وحربا ضارية ضد أنصار السخرة والقيود ، واللا إنسانية ، وقد كان للرجل خصم عنيد هو « ستيفن دوجلاس » ، الذى شهدت الانتخابات معركة دامية بينهما خرج منها دوجلاس فائزا ؛ ولكن لنكولن أصبح فى نظر الأمريكيين شخصية قومية ، ورجلا يستحق المساندة والتأييد . صحيح لم ينجح فى المدينة ولكنه كسب تأييد جميع الولايات ولم يمضِ عامين حتى كسب لنكولن ترشيح الحزب الديمقراطى له لرئاسة البلاد .

وهكذا أصبح الشاب الفقير البائس لنكولن رئيسا للولايات المتحدة ، وعلى يديه تم إلغاء نظام العبيد وأصبحت أمريكا مكانا يتسع للجميع ، يقتسمون خيراتها ، ولهم نفس الحقوق والواجبات .

ومع نجاح لنكولن الساحق وتأييد الأمريكيين له إلا أن خصومه كانوا يرقبونه ، ويتحينون الفرصة للانقضاض عليه ، وفى يوم الجمعة الرابع عشر من أبريل عام ١٨٦٥ ، انطلقت رصاصة غادرة صوب صدره سرعان ما أردته قتيلا . مشهد يشابه إلى حد كبير مصرع الرئيس الأسبق « جون كينيدى » ، فكما كانت تجلس بجانبه زوجته « جاكلين » كانت « مارى » تجلس إلى جانبه عندما قُتِلَ ليتركها هى وأولادها الأربعة يقاسون الفراق .

وودع العالم لنكولن محرر العبيد وسط حزن بالغ خاصة لتاريخ الرجل الطويل ، وكفاحه لتحرير الإنسانية المعذبة من القيود والأغلال .

□○□○□

مصادر الكتاب

١ - محاكمة سقراط - بدوى أبو ديب .
٢ - محمد علی الكبير - شفيق غربال .
٣ - بناة النهضة العربية - جرجى زيدان .
٤ - هذا مذهبى - طه حسين .
٥ - تيارات ومذاهب فنية وأدبية - عبد المنعم الحفنى .
٦ - عباقرة رحلوا زهورًا - فايز فرج .
٧ - التعريف بشكسبير - عباس محمود العقاد .
٨ - أشعار بيرم التونسى - مكتبة مدبولى .
٩ - لماذا انتحر هؤلاء - هانى الخير .
١٠ -غرام العظماء - إيرفنج وآمى والس .
١١ -الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله « صلى الله عليه وسلم » - أنيس منصور .
١٢ -لكل فنان قصة - حسين بيكار .
١٣ -روائع الفن العالمى - جمال قطب .
١٤ -أشهر الرسامين والموسيقيين - سعيد جودة السحار / جمال قطب .
١٥ -بلابل من الشرق - صالح جودت .
١٦ -الأيام - طه حسين .
١٧ -شخصيات مصرية - د. أحمد عبد الرحيم مصطفى .
١٨ -عباس محمود العقاد - يوسف الحمادى .
١٩ -عمالقة من صعيد مصر - محمد صادق .
٢٠ -بيرم التونسى - كمال سعد .
٢١ -فى تلك السنة هؤلاء العظماء وُلِدُوا معاً - أنيس منصور .
٢٢ - خطباء صنعوا التاريخ - أنور أحمد .

□○□○□

فهرس الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

□○□○□


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦



تكثر في هذا العصر الدعاوى المغرضة ، والآراء الهدامة ، التى تحاول أن تجرد عظماء التاريخ من عظمتهم ، وتفرغ تراث الإنسانية الخالدة من محتواه . وهناك عمليات إبادة تاريخية ، تستند إلى كُتّاب مأجورين ، مهمتهم اغتيال مكانة عمالقة عاشوا بيننا ذات يوم ، وأثْرَوْا حياتنا الفكرية والثقافية . كما يردد البعض مقولة سخيفة مفادها أن البطل ليس بطلاً باختياره ، وإنما نتاج اضطرارى لعصره ، وهذا يجرده بالطبع من الإرادة ، والإصرار على الكفاح النابع من الإيمان بقضية معينة .

وهذا الكتاب محاولة لتسليط الضوء على بعض عظماء التاريخ ، والطريق الصعب الذى قطعوه ، والثمن الفادح الذى دفعوه حتى بلغوا ما وصلوا إليه ، كمحاولة للتواصل مع جذور تراثنا الإنسانى حتى لا نرقص فى الهواء بلا قدمين !! .

الناشر



دار الأمين
DAR AL AMEEN

طبع
نشر
توزيع

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق خلف قاعة سيد درويش الهرم - الجيزة
٤ ش محمد محمود باب اللوق (برج الأطباء) القاهرة ت : ٣٥٥٨٤٦١

